صانع الدمى

خالد الزبيب

العبيكان
Obeikan

obeikandl.com

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الذييب، خالد
صانع الدمى./ خالد الذييب. - الرياض، ١٤٢٦هـ
١٥٩ص؛ ١٤ × ٢١سم
ردمك: ٩-٢١٤-٥٤-٩٩٦٠
١- القصص العربية - السعودية
أ- العنوان
ديوي ٨١٣,٠٣٩٥٣١ ١٤٢٨/١٣٨٤

رقم الإيداع: ١٤٢٨/١٣٨٤
ردمك: ٩-٢١٤-٥٤-٩٩٦٠

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر
شركة العبيكان للأبحاث والتطوير
الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة
هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨
ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

امتياز التوزيع
شركة مكتبة العبيكان
الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة
هاتف ٤١٦٠٠١٨ / ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩
ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

الإهداء

إلى من أعجبته المجموعة الأولى...

أقدم الثانية لعلها تعجبه أيضاً...

وإلى من لم تعجبه المجموعة الأولى...

أقدم الثانية لعلها تعوض أخطاء الأولى..

وإلى من لم تعجبه الأولى وربما لا تعجبه الثانية

... أقول ... فتش عن غيري ... فلستَ بحاجة إلي...

ولكن...

كيف ستعرف قبل أن تقرأ ؟!!

obeikandl.com

obeikandl.com

الفهرس

الموضوع	الصفحة
أيام في باريس	١١
على مثل هذا ... لا تسقط الدموع	٥٥
إليه فقط	٩٩
صـانع الدمى	١١٣

obeikandl.com

obeikandl.com

أيام في باريس

obeikandl.com

obeikandl.com

أيام في باريس

فنديل المحبة ..... يا قنديلي

يا تاج عمري ..... يا منديلي

- لا حول ولا قوة إلا بالله ... (قلتها بعد أن أمسكت رأسي متنهداً)، أزعجنا هذا "المحروس" (وهو اسم العواد الذي يعمل في المقهى المحاذي لشارع الشانزليزيه في باريس، والذي "يفترض" أنه أتى لجذب الزبائن، ولكن يبدو لي من خلال صوته وعزفه أن النتيجة ... "فاي"، أي لم ينجح أحد، أو بمعنى آخر فهو لم يجذب أحداً إلا من لم يجد مكاناً في مقهى آخر مثلي، وليت الموضوع يقتصر على صوته وعزفه فقط، بل وأيضاً على مزاجه المقلوب، فهو يبدأ مثلاً بأم كلثوم، وينتقل إلى عبد الحليم ثم ينتهي بـ "شعبولا" وقنديل المحبة!!! والأغرب من ذلك ليس فقط صوته وعزفه ومزاجه المقلوب، بل وأيضاً تعامله "الراقي" مع الزبائن!!! فقد طلب أحد الزبائن من الموسيقار "محروس" - وهو لا يحب أن ينادى إلا بهذا اللقب - إما أن يغني أغنية أخرى أو يصمت، فرد عليه محروس بحزم): هذا صوتي وهذه الأغاني الموجودة ... عاجبك الحمدلله ... أو اتجه إلى مقهى آخر ... (ثم التفت إلينا، وكأنه لمح فينا نظرات

استغراب فأكد كلامه قائلاً): وهذا الكلام للجميع ... (فالتفت رواد المقهى السبعة والذي يتسع لأكثر من ٢٠ شخصاً إلى المقاهي الأخرى في الشارع للبحث عن كرسي فارغ أو حتى "رجل" كرسي ... فلم نجد، فما كان منا وبحركة لا شعورية إلا أن ارتشف كل منا فنجان قهوته الموجود على طاولته الخاصة وكأننا نريد أن نقول "وش اللي صبرك على المر، قال اللي أمر منه"!!! وكأن "محروساً" يعلم النتيجة مسبقاً وإلا ما كان "تسلطن"!!! علينا إلى هذا الحد) .

عموما بالنسبة لي فقد فرجت فلم يبق إلا خمس دقائق على موعدي مع صديقي علي، وما يسعدني أن علي وعلى غير عادتنا كعرب بشكل عام وسعوديين بشكل خاص إنسان دقيق في مواعيده جداً، وفعلاً لم تتم الخمس دقائق التي كانت باقية على موعدي معه إلا وحضر، وبعد أن سحب كرسيه بيده اليسرى وجلس بادرته قائلا: ما شاء الله ... جرينتش.

- فقال (بثقة): ياليت كل الناس مثلي ... (ثم سد أذنيه بيديه الإثنتين وقال بانزعاج): يا أخي أكثر من مرة أقول لك لا تقعد في هذا المقهي ...

- لا توصي حريصاً ... لكني تعبت من اللف والدوران.

- فالتفت علي صارخا ناحية (محروس) وما زالت يداه على أذنيه: (يا محروووووووس).

ولكنَّ محروساً لا يلتفت ولا يرد، فقد كان مندمجاً في العزف والغناء ....

وكان في جو .... «آخر حلاوة»!!!

- فصرخ علي ثانية: محروووووس ... يا محروووووووووس ... صوت صوت ....

ولكنَّ محروساً أذن من طين وأذن من عجين، فمحروس حين يمسك العود ينسى الدنيا وما فيها، فهو شبيه في هذه الحال - كما يقول هو عن نفسه - «بفلان وعلان» من الفنانين.

وبدأ الزبائن السبعة بالتشجع قليلاً بعدما رأوا جرأة "علي" وأنه لا بد من إنهاء هذا الوضع الاستبدادي، وقد "آن لهذا الليل أن ينجلي بصبح وما الإصباح عنك بأجملِ"، فإما "نحن" أو "عود" محروس ... طبعاً لم يعلنها أحد صريحة، لأن إجابة محروس معروفة مسبقاً، هذا في حالة أنه - أساساً - سمع لهتافاتهم وصراخاتهم ...

فمن قائل: "يا محروس اسكت"، وآخر "يا محروس الله يهديك قلل من صوتك" ... وآخر قام غاضباً "يا أخي كفاية ذل ... أجلس على الرصيف أحسن لي من الجلوس عندك" ... وهكذا، أما محروس ... "فقد أسمعت لو ناديت حياً ... ولكن لا حياة لمن تنادي" ...

وأثناء صراخهم ونحيبهم وعويلهم، قمت وأشرت للجميع بأن يهدؤوا ... فالحل عندي ...

واتجهت بهدوء، وبخطوات مؤدبة ناحية محروس المندمج بالغناء والذي يبدو أنه لم ينتبه لي خاصة وهو يدندن مقطع "آآآه من الزمان آآآه... من الزمان آآآه" ... ولنا أن نتخيل كيف هو الشجن» يخرج من «آه» محروس، و«زمان» ومحروس بل ولنا أن نتخيل كمية التضحية التي أقدمها للبشرية جمعاء حينما اقتربت أكثر من محروس وحنجرته "الذهبية"، ولنا أن نستوعب حجم "الجرأة" للإقدام على مثل هذه العملية "الانتحارية" لإقناع محروس بالسكوت ولو قليلاً، خاصة وأن نسبة نجاحي لإقناع محروس بالسكوت لا تتجاوز أكثر من ٢٪ ... ومن هنا تكمن صعوبة المهمة!!! ...

اقتربت من محروس أكثر، والذي انتقل إلى «المود الشعبي ويـ «واد يا سحسح واد يا سحسح...» ولا تسألوني من هو الواد «سحسح هذا» !!! ... وقلت له بكل احترام وأدب: موسيقارنا العظيم ... موسيقار الأجيال ... محروس باشا عبد الحميد ...

- (فما كان منه إلا أن أوقف العزف والتفت إلي بكل ثقة خاصة بعدما سمع كلمة "موسيقار" لا و "موسيقار الأجيال" أيضاً، فقد اخترقت هذه الكلمة أذنه لتمر عبر الأوردة العصبية في عقله ـ في الحقيقة لا أعلم ان كان هناك أوردة أم لا ـ لتستقر في قمة

رأسه لتضرب على وتر العظمة لديه شاعراً من خلالها أنه "فلتة" زمانه قائلا: نعم.

– (سحبت كرسياً وجلست بجانبه قائلاً): موسيقارنا العظيم ... إن لبدنك عليك حقاً ... ما شاء الله، تبارك الله عليك ... لك ثلاث ساعات وأنت تغني ... ريِّح هذه الحنجرة الذهبية قليلاً ... واترك لنا شيئاً لوقت ثان ... أما بالنسبة لفلوس القهوة والجلوس فهي مدفوعة ولا تفكر فيها ... (ويبدو أني قد هدمت ما بنيته بكلمتي الأخيرة عندما ذكرت "الفلوس")

– ومن قال لك إنني أغني وأعزف من أجل الفلوس؟!!! (ثم وضع عوده جانباً، وأمال بجسده كله إليَّ وقال بكل جدية): لا يا سيد ... أنا لا أغني من أجل المال ... أنا أغني من أجل الفن ... أنا فنان ... والفنان حساس ... والفن رسالة ... (وبدأ يسترسل في كلامه عن الفن والفنانين ورسالة الفن والتي من شدة كلامه وكلام أهل الفن عنها، بدأت أحس وكأن ما بينهم وبين الوصول إلى كوكب "عطارد" إلا شهر وأربعة أيام ـ طبعاً الأربعة أيام هذه لتحديد زعيم الفنانين إلى هذه الرحلة المنتظرة ـ واستمر محروس مدة تجاوزت الساعة في حديثه عن الفن وعن نفسه، وذكرياته مع أساطين الطرب، والألحان التي سُرقتْ منه، وغيرها من الأمور التي حدثت بينه وبين أهل الفن، على طريقة «صدق أو لا تصدق» ولا بد أن

تصدق!! أما الزبائن فلم يهمهم أبداً "المأساة" التي أوقعت نفسي فيها، و "التضحية" التي قمت بها من أجلهم، إنما همهم الوحيد، هو أنه وبعد أكثر من محاولة ...

"وأخيراً ... سكت محروس" ...

* * *

وفي صباح الغد ـ تحديداً هو ليس الصباح الذي نسمع عنه ونعرفه، ولكنه صباح السياح العرب ـ استيقظت من نومي ولم أجد علي بجانبي، ولم أستغرب ذلك فهو بالتأكيد في بهو الفندق ليستمتع بفنجان قهوة وجريدة فرنسية صباحية ـ علماً بأنه لا يعرف لغة فرنسية!!!، ولكن يبدو أنه يسرح بعيداً مع الصور الملونة، والتي – بالتأكيد – لن تكون صوراً لجاك شيراك مثلاً!!

وبعد نصف ساعة تقريباً، تزيد أو تنقص قليلاً، دخلت الحمام وأخذت دشاً ساخناً لم يستغرق أكثر من نصف ساعة ـ ربما أيضاً تزيد أو تنقص قليلاً لا يهم ـ خرجت من الحمام ولبست بنطلون جينز كحليًّا، وفانيلة (تي شيرت) بيضاء اللون وارتديت عليها "جاكيت" رياضياً أسود، فقد كان الجو مائلاً للبرودة مع زخات مطر خفيفة، وأشعة شمس ذهبية أعطت السماء شكلاً من نوع آخر، وقد زينت نفسها بعقد من الألوان يسمى "قوس قزح"، تلك التي لم أر

مثلها في حياتي إلا في حلقات مسلسل الكرتون المدبلج "هايدي الجميلة!!" ...

ولن أقول إن ما رأيت يذكرني بلوحة فنان تشكيلي أو خلافه، ولكن يكفي أن هذا صنع الله الذي أبدع كل شئ خلقه ...

وأثناء ما كنت أمشي لفت نظري شكل المقاهي في النهار وطريقة صفها على جادة الشانزليزيه، والطريقة الرائعة التي أبدع فيها الفرنسيون في تنظيم هذا الشارع، وجلست على أحد الكراسي في مقهى من المقاهي، وكان كل همي أن أبعد أقصى مسافة ممكنة عن محروس، خاصة أني قد أتيت مبكراً نوعاً ما، ووجدت بعض الأماكن الشاغرة، ورفعت هاتفي النقال من جيب "الجاكيت" الأيمن للاتصال بعلي الذي تركته وحيداً في بهو الفندق لإكمال ما تبقى من قراءة الجرائد - هذا إن كان يقرأ أساساً - على أن أتجه سريعاً لشارع الشانزيليزيه لحجز مكان مناسب بعيداً عن "موسيقار الأجيال" السيد محروس كما اتفقنا مسبقاً.

وبعد ربع ساعة هي مسافة الطريق تقريباً بين المقهى والفندق وصل علي، وطلب فنجان قهوة إيطالية "كابوتشينو"، وطلبت قطعة من "الجاتوه" ليس إلا لـ "فك الريق لا أكثر"، وفنجان قهوة فرنسية "لا أعرف معنى آخر لها"!!! ...

وبعد مدة من الزمن تجاذبنا فيها أطراف الحديث ـ مسكين هذا الحديث، كم مرة ومرة يتجاذبه الناس ذات اليمين وذات الشمال، وفي النهاية يرمى كخرقة بالية، ويأتي أناس بعدنا بعد أن أتى ناس قبلنا أيضاً ليتجاذبوه أيضاً، ومن فئة مثقفين إلى فئة متثقفين إلى مراهقين ومراهقات، وشباب وشابات، وأولاد وبنات ... الكل يأتي لهذا الحديث يتجاذبه، والحديث لا حول له ولا قوة، من يد إلى يد، ومن أرض إلى أخرى، ومن طاولة إلى سيارة، وهكذا ... وهو ليس عليه إلا أن يلبي في أي مكان وزمان، وأعتقد أنه لهذا السبب عرفت لماذا أصبحت أحاديثنا بالية، وذلك من كثرة ما تجاذبناه وبالتالي ...

"مات الحديث وبقيت أشلاؤه ((نمزمز)) عليها فلم يعد لأحاديثنا قيمة أو معنى"

وأثناء ما كنا نتجاذب أطراف هذا المسكين ـ الحديث ـ حتى خلعنا أطرافه وكسرنا عظامه أطل علينا وجه غريب، لا يُميَّز ولا يعرف منه شيء إلا أنه سعودي، متوسط القامة، به صلع خفيف في مقدمة الرأس، حنطي البشرة، أما جسمه فمن الممكن أن يقال عنه متناسق لولا وجود"كرش" خفيف في مقدمة البطن، ولكن هذا لا يؤثر على شكله الخارجي، إذ إنه تدارك ذلك بسترها بفانيلته الخارجة من البنطال، وقال: السلام عليكم.

- (أجبت باستغراب من طريقة دخوله): وعليكم السلام.

- (وسحب كرسياً وجلس، وبدا معتذراً حين قال): آسف شباب ... ممكن آخذ من وقتكم دقائق؟

- (أجاب علي): تفضل.

- الإخوان من السعودية؟

- إيه نعم.

- معكم محمد علي ناصر من السعودية (وأخرج بطاقة أحواله وأرانا إياها للتأكيد على صحة كلامه، طبعاً فهمنا مقصده مباشرة دون أن يكمل، أو حتى أكون أكثر دقة فقد فهمت مقصده ولا أدري عن علي، ولا أعتقد أنها تفوته) ...

- وبدأ الأخ محمد في الاسترسال في حديثه (وبنبرة حزن مصطنعة خافضاً عينيه إلى الأسفل): والله يا إخوان ... في الحقيقة الإنسان كان يتمنى يموت ولا يكون في هذا الموقف.

- لا ... لا ... لا تتفاءل على نفسك ... (قالها علي من باب المجاملة) ...

- (ثم بدأ يوجه حديثه لعلي): الحمدلله إننا من بلد كلها خير ... وأهلها كلهم أهل كرم ... أو على الأقل نقول الأغلبية ... لأن بعض الشباب الله يهديهم يساهمون في تشوية صورة أهل هذا

البلد بلد الخير والكرم ... وعلوم "الرجاجيل" (وقد أحس الشاب أننا ربما سئمنا، خاصة وأن علي قد وضع كف يده اليسرى على قبضة يده اليمنى مسنداً خده الأيمن عليهما، ومرفقيه على طرف الطاولة، واتجه نظره ناحية الرجل الواقع على يساره، أما أنا فقد أسندت خدي الأيسر على سبابة وإبهام يدي اليسرى وضممت بقية الأصابع إلى الداخل واتجاه نظري - أيضاً - ناحية الرجل الواقع على يميني) ...

- (واستطرد الشاب بعد أن بدأ يجول بناظريه ناحية علي تارة وناحيتي تارة أخرى؛ بغية أن "تغمز" مع أي أحد فينا): بصراحة يا شباب ... أخاف أن أكون أثقلت بالكلام ... وحتى أختصر كلامي ... (ثم خفض عينيه ثانية، وتنهد قائلاً): الوالدة الله يعافيها عندها مشكلة في الرئة ومريضة جداً وتعبانه ... وأخذناها لأكثر من طبيب ... وكلهم قالوا إن علاجها صعب في السعودية ... (ثم سكت قليلاً، وتنهد ثانية) ... والحكومة - الحمدلله - لم تقصر ... وبنت المستشفيات والمدارس وكل شيء ... (ورفع كفيه إلى السماء) ... الله يعز الحكومة ... قولوا آمين ...

- (ونحن على نفس وضعيتنا السابقة رددنا): آمين ...

- (واستطرد قائلاً): المهم ... دون زيادة في الكلام ... أخاف أن أكون اخذت الوقت الكثير ... وأنا أعرف أنكما هنا للسياحة لا

لإجل سماع مشاكل ومصائب الناس ... (واستطرد) ... المهم قال الأطباء إن علاجها لا يمكن إلا في فرنسا ... ووصفوا لنا مستشفى معروفاً فيه طبيب معروف ومشهور جدا في علاج الرئة ... والآن لنا أنا والوالدة حوالي أكثر من شهر ... والحمدلله أبشركم إن العملية انتهت والوالدة قامت وهي على خير الآن ... والأطباء قالوا لازم تجلس في فرنسا من أسبوع إلى عشرة أيام فترة نقاهة ... واستأجرت لها غرفة في فندق وحجزت للعودة بعد يومين إن شاء الله ... (ثم أخرج من جيبه تذكرتين وأرانا هما، وأكمل قائلاً): وهذه التذاكر إذا لم تكونا مصدقين ...

– لا لا ... مصدقين ... حاشاك عن الكذب (قالها علي وهو لا يزال على وضعيته الأولى من باب المجاملة لا أكثر) ...

– لا ... عادي لازم ترونها ... يمكن تكونا مكذبيني لا سمح الله ... (ثم أسند ظهره على الكرسي، وأعلى كفيه ناحيته وظاهرهما ناحيتنا حين قال): وهذا من حقكم ... أولاد الحرام الله يكفينا شرهم كثير ... (ثم استطرد) ... عموما مثلما قلت من قبل دقائق ... أنا حاجز بعد يومين للعودة ... ولكن ناقصني مبلغ أعيش فيه اليومين الباقيين ... (ثم وجه كلامه لي وبدت عيناه أكثر صدقاً حين قال): وصدقني أول شيء أعمله إذا رجعت ... أتصل عليك وأرد لك المبلغ ... (لا أعرف لماذا أحسست بالارتباك حين وجه

كلامه لي شخصياً دوناً عن علي، بل وبدأت أخشى أن أصدقه، ولكني تمالكت نفسي وقلت): لا لا عادي ... صدقني أتمنى أخدمك ... لكن مثلك عارف صعب أعطيك مبلغ وأنا نفسي محتاج ...

– (ثم بدا أكثر جدية حين قال): يا أخي أنا أخوك في الله ... وأنا لا أشحذ ... ولكن اعتبرها سلف ... وإذا طلبت الوالدة مستعد أحضرها عندك حتى تصدقني ... ثم إن المبلغ الذي أحتاجه تقريباً ٥٠٠ يورو ... (وبدأ بريق عينيه يزداد لهيباً ناحيتي حين قال): ولا تؤاخذني هناك شباب يضيعون الخمسمائة يورو هذه في ليلة في مراقص وبنات وكلام فاضي ... (ثم استدرك) طبعاً أنا عارف – إن شاء الله – إنك ولد حمولة ... ولا يمكن تكون مثل الشباب الباقيين ...

– وكيف عرفت أني ولد حمولة؟! (سألته مستنكراً، وخاصة أني بدأت أصدقه، فأردت أن أقذف عليه هذه الكلمة حتى لا أنخدع فيه، أو بمعنى آخر كخط دفاع أول بالنسبة لي) ...

– شكلك ما شاء الله عليك ولد حمايل ... أو تعتقد أني أختار أي أحد حتى أكلمه في موضوعي؟ (وأردف ذلك بابتسامة حزينة أحسست أنه صادق، ولكن يجب ألا أندفع فأولاد الحرام كما قال "كثير" وربما كان هو أحدهم) ...

- (ثم أخرج جواز سفره ومده لي جاداً حين قال): إذا كنت مكذبني خذ جوازي مدة يومين واتركني أعمل عندكم بمبلغ أعيش منه في هذين اليومين أنا والوالدة ...

وأخذ علي الجواز وبدأ يقلب فيه ويتفحصه ثم تركه على الطاولة، أما أنا فلا أعرف ما الذي دهاني وصدقت الرجل فعلاً، ولا أعرف هل صدقته لأنه صادق فعلاً، أم صدقته لأنه مخادع محترف، ولكني لا أعتقد أنه بعد اقتراح الجواز شيء أخر، وفجأة أتاني خاطر أن أسأله: في أي شيء تعمل؟

- سائق ... أنظف الغرفة ... (ثم تنهد بآسى) ... حتى لو وصلت لمسح الجزم ... (ثم لمحت دمعة من عينه سقطت، واستطرد قائلاً): الظروف يا عزيزي تحتم عمل أشياء لا على البال ولا على الخاطر ...

- (وبحركة لا شعورية أخرجت محفظتي من جيبي ووجدت فيها ٥٠٠ ريال سعودي و ٨٦ يورو، ودون أي تفكير مددت له المبلغ بعد أن أعطاني رقم هاتفه النقال، ورقم الغرفة التي يسكن فيها، وعنوان الفندق الذي اتصلت عليه من باب التأكد، فتبين لي أن الرجل صادق)

❋ ❋ ❋

وفي صباح الغد، وبعد ليلة قضيتها مع علي، ذهب نصفها في التأنيب والتقريع على تصرف الأمس، فعلي لا يزال غير مصدق الرجل، وغير مستوعب التصرف الذي قمت به، "فحتى لو افترضنا أنه فعلاً محتاج ـ كما قال علي ـ فالموضوع لا يستحق ٥٠٠ ريال و ٨٦ يورو" ...

– لكن الرجال يمر بأزمة (صرخت بها لعلي وأنا مقتنع تماماً بصدق الرجل، واستطردت مستنكراً): واحد يقول لك أمي مريضة في الرئة كم أعطيه ؟؟ ١٠ ريال ؟!!!! ... أو ٥ يورو ؟؟؟؟!!!!!!

– لا وأنت الصادق أرسله لمستشفى التخصصي (قالها علي ساخراً وهو ينشف رأسه بفوطة كانت معه بعد أن خرج من دش أخذه في حمام الفندق الذي نسكن فيه سوياً) ...

– (أما أنا فلا زلت مستقلياً على السرير حين قلت): المهم الفلوس راحت ... إن كان صادقاً فأجرها لي ولوالدي ... وإن كانه يكذب فالله لا يحلله ولا يبيحه ...

– (فرمى الفوطة بوجهي قائلاً باستهتار): هه ... عذر البليد مسح السبورة ...

❋ ❋ ❋

وفي أحد المساءات وبعد ثلاثة أيام تقريباً من حادثة الشخص صاحب الخمسمائة ريال، جلست وعلي مع أحد الأصدقاء يدعى حمد على شارع الشانزليزيه في جو يميل إلى البرودة على طاولة مستديرة في أحد المقاهي المنتشرة في ذلك الشارع وسط أفواج من السياح أكثرهم من العرب، أو حتى أكون أكثر دقة من الخليجيين والخليجيات، بشبابهم وعوائلهم، المحتشمات منهن والسافرات، وكأن بعضهم شباباً كانوا أو فتيات قد خرجوا من معتقل بين بحرين إلى ساحة الحرية بين بحرين آخرين ...

وفي مثل هذا الجو المثالي للسياحة، مقاهي منتشرة، جموعاً لا تلوي على شيء، وكأن هَمَّ أغلبهم أن يمر على أكبر عدد ممكن من "بلاطات" شارع الشانزليزيه، شباب على "الدكة"، ونساء تشتري بعضهن "بفكة" والبعض الآخر تريد منه "الفكة" يسعون ذهاباً ومجيئة وكأنك في وسط الحرم "بمكة" ـ شرفها الله ـ، طلب حمد كوباً من "الكابوتشينو" طلبت ـ أيضاً ـ كوباً آخر من "الكابوتشينو"، أما علي فطلب كوباً من القهوة التركية "المنعنشة".

وبعد فترة لم نحس فيها وسط هذا الجو الرائع بكافة أشكاله وصلت الطلبات، أشعل علي سيجاره ومد يده ناحية فنجان القهوة، وهو هائم في عالم من "الخيال"، فوق أجواء من "الرومانسية"، طائرا فوق السحاب، "يغرد" مع العصافير، وإذ بصوت "موسيقار

الأجيال" محروس يصدح بـ «الأيام الحلوة راحت ... الأيام الحلوة عدت ... عدت ... (وارتفع زعيقه أكثر حيث قال): «الأيام الحلوة مابترجعش مرة ثانية ... آآآه.. آآآه.. كله ألم.. كله جرح .. كله مافيش فرح ... ودموع .. وآآآهاااات.. آآآه.. آآآ ...».. فما كان من علي إلا أن انتفض من أحلام يقظته وعاد من فوق السحاب إلى أسفل سافلين، وكأنه حمامة كانت تسرح في فضاء الله من غير حسيب ولارقيب أطلقت عليها رصاصة من جاهل لا يفرق بين الحمام ... "والجرابيع"، وقال علي وهو يمسح أثر فنجان قهوته الذي سقط على ملابسه من أثر الانتفاضة المفاجئة الناتجة من "تغريد"!!! محروس :أقول لا بارك الله فيك يا محروس لا أنت ولا هذا الصوت ... (ثم حاول أن يأخذ سيجارته التي وجدها قد سقطت أرضاً من أثر "الهزة" التي حدثت لنا جميعاً، أو لعلها قد قفزت من أثر صوت محروس واتخذت قراراً عجزنا نحن "طوال الشوارب" عن أخذه، فقررت أن الموت دون محروس أفضل ألف مرة من الحياة مع "عوائه"، فقررت .... الانتحار تحت الأقدام) ...

– (ووضع علي مرفقيه على الطاولة قائلاً بأسى): لا "ومن زين الطبايع" الأيام الحلوة «مابتجيش مرة ثانية» ... (ثم استدرك بقرف) ... ناوي يقرفنا هذا بهذه الكلمات ...

أما أنا فلم أنبس ببنت شفه، فلم يكن في خيالي سوى "هل انتهت المقاهي ولم نجد إلا هذا المقهى؟؟!!"، أتذكر أننا قمنا في الصباح أنا وعلي، واتصلنا على "حمد" عن طريق هاتفي النقال والذي قال أنه سيصل إلى باريس قادماً من لندن في الساعة الخامسة مساءً، وحددنا المكان في أحد المقاهي على شارع الشانزليزيه، ولكن يبدو أننا أخطأنا خطأ فادحاً، فلم نحدد مقهى معيناً، ولم نحذره من هذا المقهى على الأقل، فحمد والذي لم يمض على مدة دراسته في انجلترا سوى شهر وأسبوعين تقريباً لم يزر باريس في حياته، لذا فيبدو أنه أتى إلى الشانزليزيه ولم يجد مكاناً "خالياً" إلا في مقهى "موسيقار الأجيال" محروس ...

واستمر محروس في "تقاسيمه" الفنية!!! بصوته "العندليبي"!!!، وبعد فترة لم يهمني حسابها في جلستي في هذا المقهى، وبالتحديد مع وجود "موسيقار الأجيال" اعتبرها "نسبة خطأ" في هذه الرحلة تساءل حمد بعصبيته المعتاده: متى يسكت هذا؟! ...

- (فجاوبه علي بأسى): مالك إلا هذا الحل ... أي حل غيره ما ينفع ...

- وما هو هذا الحل؟

- إما أن تسمع وأنت ساكت أو أن تقوم ...

- (فجاوب حمد سريعا وبكل "ثقة"): أقوم ...

– (فقال علي وعيناه في الناحية الأخرى لحمد واضعاً مرفقيه على الطاولة مشبكاً بين أصابعه): إذا لقيت مكان علمنا ...

– (والتفت حمد بكل حماسة ناحية شارع الشانزليزيه من جميع الجهات فلم يجد إلا كراسي ممتلئة عن آخرها، ثم عاد بناظريه إلينا وقال باستسلام): أسمع أحسن ...

❋ ❋ ❋

وبعد يومين على مكوث حمد معنا عرف فيها كل ما جرى بيني وبين علي أثناء الرحلة ومنها حكاية الخمسمائة ريال التي تبرعت بها لذاك الشاب "بكل مروءة"، واندهش حمد من هذه المروءة الزائدة والكرم المبالغ فيه، وتساءل مندهشاً: مجنون أنت؟! ... أي واحد يقول لك أنا محتاج فلوس ... تمد له يمينك؟! ...

– ولكن هذا إنسان محتاج (قلتها مبرراً موقفي، واستدركت قائلاً): وأمه الله يشفيها ويشفي جميع المسلمين مريضة بمرض خطير ... والموضوع كله لا يستحق ... كلها ٥٠٠ ريال دائما ما تضيع بأشياء لا معنى لها ... أين المشكلة إن ضاعت بصدقة ... فلعل الله يرحمنا ويعافينا مما نعمل بهذه الصدقة ...

– (فقال علي موجهاً حديثه لحمد): تدري لها كم يوم الحكاية؟!!

- ٥ أيام على كلامكم ...

- والشيخ متى قال سيسافر؟

- بعد يومين على كلامكم .

- (ووجه علي حديثه لي حين قال): التفت هناك (وأشار إلى يميني)

"ياللمفاجأه ... بل يا للخزي والعار"، فصاحبنا صاحب الخمسمائة ريال أراه على بعد ٢٠ ـ ٢٥ م تقريباً وسط الزحام واقفاً على مدخل أحد الملاهي الليلية، وبجانبة فتاة ... لا شكلها ولا عمرها، ولا جسدها، ولا لبسها توحي بأنها أمه ... بل والأدهى والأمر بأنها ليست أماً على الإطلاق!!!"

والتفتُ إلى علي، والتفتُ إلى حمد، فلم أر منهما سوى نظرات شماتة وسخرية، وعرفت حينها أني سأكون "سالفة" الشباب إذا رجعنا الرياض ...

وأُنزِلَ جفناي رغما عني إلى عيني، وكأني برموشي تريد أن تغطيني من رأسي حتى أسفل قدميّ من الخجل الذي انتابني، وشعوري بالإحراج الذي غطى كل كياني، فقد عرفت أني ودون مقدمات ومن الآخر و"على بلاطة" أنا إنسان أقل ما يقال عنه إنه ... "غبي"

فتنهدت بيني وبين نفسي "هذه والله المشكلة، الموضوع عندي ما هو موضوع ٥٠٠ ريال!!! الموضوع السالفة التي ستنتشر عند كل الشباب إذا رجعنا الرياض ... كيف "تترقع" ... الله أعلم ...

❋ ❋ ❋

وبعد فترة صمت لم أجد فيها ما أقوله رفعت رأسي ثانية ناحية صديقيّ، ولم أر إلا همزات وغمزات ساخرة تجاهي، مثل "هاه ... ياحاتم الطائي" (والتي نطقها علي)، أو مثل "يالله يابو مروءة ... اتركه ينفعك" مثلما قال حمد، وعلى هذا المنوال كلمة من هنا، ويرد عليه الآخر بكلمة أخرى من هناك، وأنا حائر بينهما كأني كرة تنس طاولة يتناولها اللاعبان بضربات مرة قوية، ومرة ضعيفة، ومرة يتفننون فيها، ومرة يعدانها بمهارة، ومرة بـ "مزمزة" كل حسب طاقته أما أنا ... فلا حول ولا قوة لي إلا بالله ... "ضاعت فلوسك يا صابر"

وفجأة وبلا شعور وجدت نفسي أنطلق سريعاً ناحية هذا الشخص بغية الإمساك به، لا لأخذ الخمسمائة ريال والـ ٨٦ يورو فقط، بل لأصفي حسابي معه جسدياً أولاً، ومعنوياً ثانياً، ثم بعد ذلك نتفاهم على الأمر المادي ...

وحين وصلت إلى باب النادي الليلي، بحثت عنه يمنة ويسرة فلم أجده "ربما قد دخل"، وبسرعة قطعت تذكرة دخول سوف أعوضها منه إذا أمسكت هذا "الوقح" ...

وبدأت وسط هذا الجو المشحون بالإزعاج، والصخب والظلمة الكالحة إلا من أنوار ملونة أعلى السقف ترسل إضاءتها على كل المكان أقلب في وجوه جميع الموجودين لعلي أجده ...

وبعد ساعة ونصف تقريباً من البحث "والتحري" في هذا النادي الليلي الكبير عن ذاك الوغد ذهبت إلى المكان الذي تشترى منه المشروبات "البار"، وسألت النادلة عن الشاب، وأعطيتها أوصافه فأجابت بأنها لا تتذكر، فكثير من الزبائن يأتون هنا يومياً وأكثرهم يشبهون مواصفات صاحبك!!! ...

وقفت لا أعلم ماذا أفعل، وركزت بمرفقي الأيمن على طاولة البار ووجهي ناحية باب الخروج وذلك من باب الحيطة حتى لا يفلت مني، وظهري ناحية "ساحة الاستنفار"!! أو بمعنى أخر ما يسمونه بـ "ساحة الرقص" وأنا لا يهمني أحد في تلك الليلة إلا أن أجد ذاك الفتى ...

وبعد لحظات، وأنا على وضعيتي الأولى طرق أحدهم من الخلف على كتفي الأيمن، والتفت برقبتي فقط دون جسمي خلفاً من جهة اليسار وإذ به حمد وعلي الذي قال ساخراً: آخر الأخبار يا كولومبو ... لقيت الشيخ؟! ...

- لا ... لكني سألقاه إن شاء الله ... (وعدت وألقيت بظهري إليهما ثانية، في إشارة لهما حتى يفهما أن هذا ليس وقت

"استظراف"، ولكن يبدو أن المحاولة باءت بالفشل، بل وعلى العكس فقد أدت إلى نتائج عكسية، فقد وجد "الأخوين" أن هذا أنسب وقت للاستظراف وأن صاحبهم الذي هو أنا سيكون "حفلة الليلة"، فانتقل علي سريعاً أمامي قائلاً بسخرية): هو من ناحية ستلقاه ... لا بد أن تلقاه ...

- (فأسرع حمد قائلا أيضاً بسخرية موجهاً حديثه لعلي قاصدني على طريقة "إليك أعني واسمعي يا جارة"): أجل أمه مريضه؟

- (فقال علي): إيه ... يا حراااااام ... مريضة بالرئة ...

- ولعلهم لقوا لها مستشفى ... ومكان ينامون فيه ...

- بصراحة وضعهم كان صعباً ... لكن - الحمدلله - أولاد الحلال كثير ... تبرعوا لهم بخمسائة ريال

- (وقاطعه حمد): و ٨٦ يورو ... لا تنساها

وهنا لم أعد أطيق احتمالاً، ولكن ما العمل، فالأخذ والرد معهم في النقاش لا جدوى منه، فقصدهم بات واضحاً، هم شباب فاضيين وجدوا لهم شاب يمر بموقف مضحك ولا يدل على شيء إلا على الغباء المستفحل، "فما المانع أن نحتفل به قليلاً"، وقررت أن أخرج لعل الموضوع يبرد بعض الشيء إلا أن عليّاً أمسك كتفي قائلاً: على فين العزم إن شاء الله؟

- الفندق ...

- والأخ ... (قالها ساخراً) ...

- علي ... الله يرضى عليك ... ما فيني يكفيني ... (وألقيت إليه بظهري ومشيت، وهنا قال علي قبل أن أمشي): على فكرة الكلام هذا كله مقبلات ... الحفلة الكبيرة إن شاء الله في الرياض عند الشباب (وقهقه ساخراً) ...

فتنهدت بيني وبين نفسي قائلاً: الله يستر ...

❋ ❋ ❋

الساعة الآن ١٢ ظهراً في باريس، خرجت مع صديقيّ إلى حيث المقاهي في شارع الشانزليزيه للجلوس فترة الظهر هناك كالمعتاد، وحرصنا بالطبع أن نبتعد قدر المستطاع عن "موسيقار الأجيال" محروس الذي يبدأ "تقاسيمه، وصدحه" من الساعة الثالثة ظهراً حتى الساعة الثانية من صباح اليوم التالي، وأثناء المشي لم يَخلُ الحديث طبعاً من تذكر حكاية الشاب "أبو خمسمائة"، وإن قلّت حدتها بالطبع، ولا يوجد كلام أقوله، فكل ما استطعت عمله هو السكوت لعل هذه العاصفة "الاستهزائية" تمر على خير، وأثناء ما كنت أمشي وسط "الثنائي المدهش" أستمع لتعليقاتهما، وأتقبل سخرياتهما بأسى مطأطئاً رأسي من الخجل واضعاً يديّ في جيبي

البنطلون، إذ بي أصطدم بشيء كان أمامي، وبدلاً من أن أقول "آسف" باللغة الإنجليزية أو الفرنسية نسيت نفسي وقلتها بالعربية بعد أن لمحت بطرف عيني اليمنى طرف بنطال أسود وحذاء رياضياً تأكدت منهما أني اصطدمت بكائن حي على الأقل ...

– لا لا ... عادي (قالها الشخص المصدوم باللغة العربية أيضاً).

وبحركة لا شعورية مني رفعت رأسي لإرى هذا الشخص بعدما سمعته يتكلم بلغتنا، بل وأيضاً بلهجتنا، وفي الحقيقة لا أعرف هل هي "لا شعور" فعلاً أم أنه الفضول؟!

– انت؟!!! (قلتها مندهشاً بعد أن رأيت الوجه الذي أمامي، فلم يكن ذاك الوجه سوى وجه "صاحب الخمسمائة" وذلك بعد مدة تعدت الأسبوع تقريباً من لقائي الأول به) ...

– (فما كان منه إلا أن ضم جميع أصابع يديه ورفع سبابتيه إلى السماء وبدأ يهزهما ووجه أمامي قائلاً): صدقني ... صدقني مالك علي يمين إن الوالدة زادت عليها الحالة سوءاً ... وإنها المفروض تطلع من اليوم الذي كلمتك فيه ... لكن بعيد الشر عنك الحالة زادت عليها سوء ... سوء ... سوء ...

– (وركزت عيناي في عينيه قائلاً بسخرية): لا ياشيخ ... ولك أسبوع إلى الآن في باريس؟

– (ثم هدّأ نبرة صوته قائلاً بحزن مصطنع): لو الموضوع بيدي كان رجعت الرياض من أسابيع ... لكن الظروف ... (ثم التفت يميناً وتنهد قائلاً): لا تنسى هذه الوالدة ... والوالدين برهم واجب ... الله يعينّا على برهم قل آمين ...

– (وقلت له وأنا مكتفاً يداي غير مبالي به، فهذا الكلام لم يعد يؤتي أكله معي): المهم ... الـ٥٠٠ ريال والـ ٨٦ يورو يكونوا عندي الآن ... وإلا (وبدأت بنبرة تهديد لم أعتدها من نفسي، ولكنها الظروف أحياناً التي تخلق أشخاصاً في دواخلنا مختبئين لا يظهرون إلا متى ما أرادوا، أو متى ما أجبرتهم الظروف) ... تكون في خبر كان ...

– (وبدا معتذرا ومؤدباً حين قال): لا لا .... الموضوع لا يستاهل كل هذا ، الـ ٥٠٠ ريال والـ ٨٦ يورو ترجع لك (وضرب على صدره للتأكيد) ... وأبشر بسعدك، لكن أمهلني وأنا مثل ما تعرف غريب هنا لوحدي أنا والوالدة ...

– رجعنا لموضوع الوالدة ... (ثم استدركت ساخراً) ... لاتكون هي شقراء وعمرها حوالي ٢٢ سنة ... (في إشارة إلى الفتاة التي كانت معه تلك الليلة) ...

– (وبدا مستغرباً أو مستعبطاً لا أعلم حين قال): أي شقراء؟

– (فتدخل علي قائلاً): وأنت عندك كم شقراء ؟؟؟!!!!!

– (واتجه بوجهه ناحية علي قائلاً ببراءة مصطنعة): يا إخوان أنتم فهمتوني غلط ... وأنا لا أفهم تتكلمون عن أي موضوع!! ...

– (وهنا لم أتمالك أعصابي، وسحبته بيدي مع فانلته وأخذت أهزه قائلاً): كلمني هنا دون استعباط الـ ... (وفجأة إذ بثلاثة عساكر راجلين بهراواتهم آتين إلينا، وبدؤوا بتوجيه حديثهم إلينا باللغة الفرنسية دون أن نفهم منها شيئاً، الشيء الوحيد الذي فهمناه أن هناك خطأً عملناه، ولكن ما هو ... الله أعلم) ...

وبدأ أحد العساكر يتحدث إلينا دون أن نفقه من حديثه شيئاً، ولم نزد ولم نجب على حديثه إلا بكلمة "وي" والتي كنا نسمعها كثيراً، وأعتقد أن معناها ... "طيب" ...

وبعد ذلك...

أحس العسكري أنه في واد ونحن في واد آخر، وبدأ يلتفت يميناً ويساراً، وفهمت منه أنه يبحث عن عربي يترجم لنا، "ورزقنا الله" بأحد الإخوة العرب ويبدو لي أنه من المغرب العربي الذي ترجم لنا كلام العسكري، وملخصه أنني متهم بالاعتداء على شخص "مسالم" في مكان عام، وهذه عقوبتها أن أدفع غرامة تقدر بـ ٢٠٠ يورو للشخص طالما أنه لم تحدث إصابات خطيرة إلا إذا سمح المعتدي عليه بعدم الدفع فله ذلك، إلا أن صاحبنا عندما سمع

الكلام المفروض علي أن أنفذه لم يصدق خبراً ووافق على ذلك وطالب بالتعويض وقدره ٢٠٠ يورو ....

وغادر وسط حماية اثنين من العسكر "لحمايته مني"!!!، أما أنا فقد حجزني العسكري مدة دقائق حتى اختفى صاحبنا عن الأنظار، والذي قال قبل أن يذهب، وبنظرات براءة مصطنعة، بل ومستفزة: اسمح لي، ما كان ودي أن الأمور تصل إلى هذه النتيجة، لكن الوالدة مريضة وظروفي صعبة ...

ووضع الـ ٢٠٠ يورو في جيبه ... "وعيوني تتبعها"!!!

وفي صباح الغد، وبعد ليلة قضاها صاحبي في التعليق والسخرية علي بسبب الموقف الثاني، فالموضوع لم يعد مجرد ٥٠٠ ريال و ٨٦ يورو، بل أضيفت إليه ٢٠٠ يورو أخرى وإنذار من الشرطة الباريسية، وكل ذلك بسبب "الكرم الحاتمي" الذي طرأ علي فجأة، كما كان "حمد" يعلق دائماً، واتجهت وحيداً إلى شارع "الشانزليزيه" كالعادة، وتركت صاحبي غارقين في "سابع نومه"، ولا أعرف لماذا فعلت ذلك، ولكن ربما هروباً منهما ومن تعليقاتهما التي زادت عن حدها، أو ربما حتى لا أرى نفسي في المرآة أكثر من اللازم فأسبها وأشتمها على هذا "الكرم الزائد" في غير محله، أو

بمعنى آخر "الغباء المستفحل"، فكيف فات عليَّ أن ذلك الشخص ليس إلا "نصاباً محترفاً"، وأنه مثل أغلبية "أولاد الحرام" الذين أشار إليهم وأني لست سوى "ولد حلال" طيب ومغفل من السهل أن يضحك عليه ...

"آه" أطلقتها قهراً، وأنا أطرق بيدي اليمنى على الطاولة التي أنا عليها "آه ... لو أمسكه ... والله لا تهمني الفلوس ... لكن المهم كيف أنه قدر أن يضحك علي ... قال "ايش" قال أمه مريضة ... "أقول لا بارك الله فيك أنت وأمك في ليلة واحدة قل آمين " ...

وبعد فترة قضيتها وحيداً فاجأني عليٌّ من الخلف ساخراً: هلا حاتم ... (طبعا هو عندما يذكر حاتم ليس لأن اسمي حاتم، ولكن من باب السخرية يشبهني بحاتم الطائي)

- (وأضاف حمد): صباح الخير يالكريم ابن الكرماء ...

- (قلت وأنا نفسي برأس أنفي): هلا ...

- (حمد): لعل المانع خير .... وكأني أرى حاتم مهموماً؟ (قالها ساخراً) ...

- لا مهموم ولا حاجة ... لكن أرجوك قفل على الموضوع ...

- (وسحب كرسياً وجلس قائلاً): المهم أين الوجهة هذه الليلة؟

- أي مكان ...

– (ثم قال علي بحماس ظاهر): شباب لنا الآن أكثر من ١٥ يوماً، وهناك أماكن كثيرة لم نذهب إليها حتى الآن ...

– (حمد): مثل؟

– (وبدأ علي يعدد): برج إيفل، متحف اللوفر، الحي اللاتيني، وغيرها كثير ...

– حمد (بلا مبالاة): اقعد يالسائح!!! ...

– لماذا؟!! ... أنا وحاتم (وأشار إلي) هنا من أجل السياحة ... والواحد كم مرة في عمره يصل باريس!!

– لم نختلف ... لكن ... (ثم ابتسم فجأة ووجه حديثه إليّ قائلاً): صاحبك ...

– (وقلت وأنا أذوب بملعقتي السكر في كأس القهوة التي طلبتها): ومن تقصد؟

– (وقال ساخراً): وهو فيه غيره؟ ... ولد المريضة.

(والتفت ناحية الجهة التي أشار إليها حمد، ووجدت "أبو الشباب" جالساً على كرسي إلى إحدى الطاولات وبجانبه فتاة عشرينية العمر، عربية الملامح تختلف عن تلك التي رأيتها معه في السابق، ماسكاً بيده اليمنى بخرطوم شيشته، وواضعاً يده اليسرى على حرف الطاولة، أما الفتاة فأمامها كوب مشروب ساخن، طبيعي

لا أستطيع تمييزه من مكاني البعيد نسبياً عنهم، واضعة رجلاً على رجل بملابس لا توحي أبداً أنها قريبة أو زوجة، وهممت أن أقوم من الكرسي مندفعاً إليه ومن عيني يتطاير الشرر وكأنه وكما يقال "عفاريت الدنيا تتنطط في وجهي"، وإذ بعلي يمسكني من يدي قائلاً): على فين العزم إن شاء الله؟

– (وأبعدت يدي من علي، وانطلقت إلى الرجل قائلاً): "أبجلده" ...

– (إلا أن عليّاً أمسكني ثانية قائلاً): يامغفل ... أنت الظاهر إنك لم تتعلم من التجربة السابقة.

– (وقلت وأنا لا أزال في ثورة غضبي): لا علاقة لي بأي شيء، أنا اليوم ياقاتل يا مقتول.

– (فقال علي بعد أن تمكن من إمساكي ودفعني إلى الكرسي ثانية): والظاهر إنها لا هذه ولا تلك ... شكلك "بتدز" له ٢٠٠ يورو ثانية، لا ويمكن أن تسجن ...

– (وتنهدت قائلاً): طيب والحل؟

– الحل إنك تفكر بعقل ... أو أنك تنسى

– أما أنسى ... فهذه كثر منها ... (وقلت منفعلاً) ... هذا الوقح لا خيار عندي له إلا أحد اثنين ...

– (قال علي ساخراً وهو واضع كف يده اليسرى على خده الأيسر): أيوه ... وماهما؟

– أما أن يرجع لي الفلوس، أو أمسح فيه البلاط ... (ولأول مرة أجاهر بما في نفسي لحمد وعلي حين قلت) ... بصراحة الموضوع عندي ليس موضوع فلوس بقدر ماهو موضوع مبدأ.

– (وقال حمد ساخراً): بسم الله عليك يا بو مبدأ .... أجلس "وأقضب" أرضك ... أما بالنسبة للقروش فهي راحت عليك، وبالنسبة للتمسيح بالبلاط فالبلد فيها قانون صعب أنك تعمل شيء.

– (ولكني لم أقتنع بكلامهما، فقمت سريعاً وقلت لهما متجاهلاً نصائحهما): بلا قانون بلا بطيخ (وسمعت علي يقول محاولاً إنقاذ ما يمكن إنقاذه): إعقل يا بو الشباب ...

وحين وصلت إلى الرجل صرخت فيه قائلاً: اسمع أنت يالنصاب يا ولد النصابة ... المرة الأولى راحت، والثانية عدّت (وضربت بيدي على طاولته بكل عصبية حين قلت): أما هذه المرة يا ترجع الفلوس وإلا قسماً بالله العظيم أني لا أمسح فيك البلاط "وأمردغك" وأتركك سالفة "للي يسوى واللي ما يسوى" فاهم؟

فما كان من الفتاة إلا أن عدلت جلستها وأزاحت كرسيها خوفاً من حدوث ما لا يحمد عقباه، أما صاحبنا فقد أخرج خرطوم

الشيشة من بين شفتيه ونفث بعيداً عن وجهي قائلا بكل هدوء: هدي أعصابك يا كابتن، واسترح .

- (وقلت وأنا ما زلت في فورة غَضبي): لا تقل لي استرح، أنا راحتي إذا وضعوك في قبرك يا متخلف ...

- (ولا زال الرجل بهدوء غريب حين قال): لا حول ولا قوة إلا بالله، بدأنا بالغلط، استرح جزاك الله خير ونتفاهم (والتفت ناحية النادل وصفق بيديه على طريقة المقاهي في العالم العربي): ياجرسون، (والتفت إلي قائلاً): تشرب شيء؟

- (وما كان مني إلا أن غطيت وجهي بكف يدي اليسرى قائلاً): لا حول ولا قوة إلا بالله أنت ناوي تذبحني؟

- (فقال ببرود): أذبحك؟ بيني وبينك شيء؟

- (وصرخت غاضباً من تجاهله للموضوع "واستعباطه" القاتل): بيني وبينك أشياء، وإذا كنت ناسي أذكرك ياولد المريضة ...

- (وبعد أن سحب دخاناً من خرطوم شيشته قال): أنا أعرف ما بيني وبينك، ٥٠٠ ريال و ٨٦ يورو، وأُنا ناوي أرجعها لك

- (وقلت صارخاً): والميئتين يورو لا تنساها .

- (ثم قال بهدوء قاتل): لا حبيبي الميئتين يورو هذه أخذتها بقوة القانون ...

- لا يا شيخ!! ... وضح طال عمرك!!

- أنت اعتديت عليّ وهذه خارج الحسبة ... الميئتين يورو انس موضوعها

- (ثم زاد صراخي حين قلت): أقول يا ثقل طينتك يا قذر، الميئيتن يورو قبل الخمسمائة، فاهم

- (ودفع بكرسي ناحيتي قائلاً): أنت استرح الآن ... (ثم ضرب على صدره بيده اليسرى قائلاً): وأبشر بسعدك، وفلوسك راجعه راجعه ... لا تهتم...

- (وجلست على الكرسي قائلاً بحنق): لك حوالي ١٠ أيام وأنت تسحب فيني، ومن يشهد لي على كلامك؟

- (وأشار إلى الفتاة قائلاً): الأمورة هذه تشهد لك ...

- (والتفت ناحية الفتاة، أو "الأمورة" كما قال وأدرت وجهي إليه قائلاً بأسى): وهذه من تكون؟؟!!! الوالدة!!

- ياليت ... (ثم استدرك قائلاً) ... وأنت مصدق قصة الوالدة؟

- (واندهشت من هذه الصراحة، بل الوقاحة أغلب الظن، وكدت أن ألطمه على وجهه من شدة غيظي، إلا أني تمالكت نفسي وقلت محاولاً مسك أعصابي عن الغضب): بصراحة كنت مصدق.

- والآن؟

- طبعا لا...

- (ثم قال بهدوء مستفز): وبصراحة أنت كنت غبي ...

- (وعبست في وجهه قائلاً بحنق): أقول احترم نفسك ...

- لكن أقدر أقول عليك إنك الآن ذكي ...

- يعني أنت نصاب؟!!!

- (وابتسم ببرود): يا سلام عليك ... نمرة واستمارة ...

- (وقلت وأنا لم أفهم بعد ماذا يقصد): وضح الله يرضى عليك ...

- (وبدا بفخر يصل إلى حد الغرور): أنا نصاب نمرة واستمارة ... ويمكن ولا فخر زعيم النصابين العرب في نطاق أوروبا كلها، وإذا تريد أن أكون أكثر صراحة في نطاق جميع الدول السياحية التي يقصدها السياح الخليجيون والسعوديون تحديداً ...

- يعني؟؟!!!

obeikandl.com

- (ثم أخذ نفساً من الشيشة وقال): أقولك حاجة بصراحة؟

- (قلت وأنا واضع يدي على خدي باستسلام): تفضل ...

- أنا كل صيف إذا حبيت أسافر إلى أي دولة معينة يكون معي حق التذكرة زائد قيمة المعيشة مدة أربعة أو خمسة أيام بالكثير، أما باقي المدة فهي على حساب الطيبين مثلك وأشكالك ...

- (وقلت وكأني أريد أن أذبح نفسي لأني وضعت نفسي في هذا الموقف "البايخ"): قصدك الأغبياء؟!!

- (وأشار بيده اليسرى نافيا): لا لا ... حاشا لله ... (ثم استدرك مستفزاً) ... أمم ... يعني تقدر تقول إذا حبيت تعطيهم هذه التسمية ...

- (ثم عدلت جلستي وقلت له بإصرار): اسمع يا بو الشباب ... قصة حياتك، أسلوب تعاملك القذر هذا مع الناس لا علاقة لي فيه، كل ما يهمني إن فلوسي ترجع لي ... (واستطردت قائلاً) مسألة إني أرجع للرياض وأكون سالفة الشباب في الاستراحة بسببك أنت وأشكالك ... انس ... مفهوم؟؟؟؟

- (فأجاب ببرود): والمطلوب مني؟

- المطلوب ؟؟؟؟!!!!!!!! (ثم تمالكت أعصابي واستطردت قائلاً) ... من أين تفهم أنت؟ من أين تفهم أنت؟ أقولك فلوسي، فلووووسي، هذا هو المطلوب.

– (ثم وضع سبابة يسراه على أنفه قائلاً): على هذا "الخشم"، آمر... عندك شيء ثاني؟

– (قلت محاولاً أن أنهي هذه الجلسة المملة): سلامتك .

– باكر إن شاء الله ...

– (وقاطعته قائلاً): بلا باكر بلا بطيخ، الآن ...

– صدقني الآن ولا فلس، إلا فلوس الغدا، تحب تأخذها؟

– وكم فلوس الغدا؟

– تقريباً من ٢٠ إلى ٣٠ يورو، (ثم استطرد قائلاً): أقولك ... عندي لك رأي، نتغدى سوى الآن، وباكر بمشيئة الله في نفس هذا الوقت وفي نفس هذا المكان أرجع لك فلوسك ريال "ينطح" ريال، ويورو "يرفس" يورو، آمر... قصرت معك بشيء؟

– (وقلت له ساخراً): ياسلام عليك ياشيخ، أنت بنفسك قبل دقائق تعترف لي إنك نصاب، وفي ظنك أصدقك؟؟؟!!!

– صحيح أنا نصاب ... لكن مع الأغبياء ... أما الأذكياء فأنا أقدرهم وأحترمهم، وأنت واحد من الأذكياء ...

– لا يا شيخ ...

– (وبدا بنظرات باردة): صدقني ... أنا أول مرة أقابل واحد

obeikandl.com

في ذكـائك، ودهائك ... بالعـادة إذا نصـبت على أحـد ينسـوني وأنسـاهم ولا أقـابلهم مـرة ثانيـة أبداً، أمـا أنت فـحـالة خـاصـة ... واضح أن الموضوع لم ينطلي عليك بسهولة، بدليل أنك تلاحقني من مـقـهى لمقـهى، ومن شـارع لشـارع، ومن مكان إلى مكان، وهذا شيء زاد إعجابي فيك ... لأن هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنك إنسـان مكافح وراء مطالبك، ومـثل مـا يقـولون "مـا ضـاع حق وراه مطالب"، وإنك إنسـان داهيـة تقابلني من مكان إلى مكان ولا تقـول "كـولمبـو" مـا شـاء الله عليك، لا وأزيدك من الشـعـر بيت، عـبـقـري لدرجـة إنك تركـتني - لا شـعـورياً - أعـتـرف لك إني نصـاب، لذلك أرجع وأقـول أنا أحـتـرمـتك، ولـذلك أنا أعـزمك على "غـدوة" حلوة الآن، وباكـر أنـا آتيك في المكان الذي أنت فـيـه والوقت الذي تحب، وأرجع لك فلوسك ... آمر قصرت معك بشيء؟؟؟

- (ثم غطيت وجهي بكلتا يدي وتنهدت قائلاً): لا حول ولا قوة إلا بالله ... على كثر مـا قابلت من نصابين وبجيحين لكن أمثالك لم أقابل (ثم صرخت في وجهه قائلاً): كيف تظن أني أصدقك وأنت قاعد تنصب علي من الصبح ...

- (ثم قال بهدوء): أقولك نصيحة؟؟

- (وتنهدت بقرف): تفضل ...

- أنت مالك إلا أن تصدقني .

– (وقلت في ذهول): خير يا طير؟؟!! والأسباب؟

– سبب واحد وبسيط، أنا الآن لا أملك شيئاً، تريد أن تشتكي علي اشتك، لا يوجد أي دليل إنك أعطيتني شيئاً، أما إذا كان "تمسح فيني البلاط" مثل ما قلت فالبلد فيها قانون وأنت جربت النتيجة في ذاك اليوم، وأعتقد أنك ما عندك نية تدفع ٢٠٠ يورو ثانية، لذلك نتغدى سوى الآن، وباكر يحلها ألف حلال ...

– (وأمام هذا البرود القاتل، والثقة العمياء، والغرور السمج، لم أجد حلا إلا كما قال، بل وزدت عليه بأن قلت له): على رأيك "خلَّك مع الحمار لغاية باب الدار" ...

– (وابتسم باستفزاز قائلاً): بدون غلط، (وفتح قائمة الطعام وقال لي): تطلب شيئاً؟

– (قلت باستسلام): الموجود ...

– (ثم نادى النادل ثانية، والتفتُ إلى صديقيّ علي وحمد، ووجدتهما يناظران إلينا باستغراب إلا أنهما لم يحركا ساكنين، وبعد أن أتى النادل قال له "الشيخ محمد"!!، بلغة إنجليزية مكسرة): عربي أم أجنبي؟

– (فأجاب النادل): عربي يا بن عمي ...

– تشرفنا "خيو" (قالها "الشيخ محمد"!!، ثم استدرك قائلاً):

أحب أطلب طلبين لي وللأخ (وأشار إلي)، وللآنسة طلب (وأشار إلى الفتاة القابعة أمامه) ...

- (وقاطعته ساخراً): ماشاء الله، كريم من حلال غيرك ...

- (وابتسم دون أن يرد بكلمة، ثم وجه حديثه للنادل): عندكم دجاج مشوي؟ ...

- تكرم عينك أخي، أكيد عندنا ...

فطلب له دجاج مشوي، وطلب لي مثله، أما «أمورته»!!، فقد طلب لها قطعة ستيك... وبعد أن أكلنا وشبعنا، دفعنا ما أكلنا ببعض المشروبات، ثم قامت الفتاة من الطاولة، أما هو فقد استأذن لغسيل يديه!!...

ومرت ربع ساعة وأنا أنتظر...

وزادت الربع ساعة ربعاً آخر...

وزادت الدقائقُ أرباعاً أخرى، إلى أن أتى صديقاي، فسألني علي: ماذا تنتظر؟!...

- الشيخ محمد (قلتها بقرف)...

- لماذا؟!...

- حتى يدفع الحساب...

- أي حساب؟!...

وبعد أن حكيت لهما الحكاية، فاجأني علي بأن قال: يا سيد ... الظاهرة إنه فعلاً لكل داء دواء يستطبُ به... إلا الحماقة أعيت من يداويها...

ودون أن أتكلم... أو أرد.. فقد أحسست بشئ ما، خشيت أن يكون صحيحاً!!!...

إلى أن أتى النادل الذي قدّم لي الفاتورة، والتي بلغت تقريباً ١٠٠ يورو!!

فتأكدت.. أن ما توقعته متأخراً قد حدث، فقد ذهب صاحبنا ليغسل يديه، ويغسل جيبي من ١٠٠ يورو أخرى!!

فقال حمد بلهجة مصرية ساخرة قاتلة: نشنت يا فالح!!!...

وبعد أن زاد قهري قهراً، وغيظي غيظاً، وأنا أقرأ الفاتورة، ليس لإني سأدفع إضافة إلى ما دفعت حق الشيشة أيضاً، وليس من أجل الخمسمائة ريال السابقة ومعها الستة وثمانين يورو، وليس من أجل المئتين يورو التي دفعتها سابقاً فهذه فلوس «تروح وتجئ»... لكن لإني أيقنت وباختصار أنني سأكون فعلاً...

سالفة الشباب إذا رجعنا الرياض»!!!

وهنا... استندت رأسي على الكرسي متعجباً من هذا الرجل، مستغرباً من حماقاتي التي بلغت حدّاً تخطى السحاب سذاجة، وغباء

نافس الجبال إرتفاعاً وبدأت بعيني على غير هدى أتجول في أنحاء شارع الشانزليزيه ومقاهيه ساهما وإذ بـ "موسيقار الأجيال" قد وصل إلى مقهاه "يدوزن" عوده ليبدأ بـ "الصدح"، و الـ "ردح" فصرخت فيه قائلاً): محروووووووووووووووس

- (والتفت محروس محاولاً أن يعرف مصدر الصوت): أيووووه ....

- غرّد لي بالقنديييييييييييييييييييل!!!!!!

- (ولم يصدق محروس خبراً وبدأ "يلعلع" بصوته "العذب"): قنديل المحبة .... يا قنديلي

يا تاج عمري .... يا منديلي!!!

التوقيع : واحد قلبه أبيض ... ويا سعد من مات ... وقلبه أبيض ...

obeikandl.com

على مثل هذا ....لا
تسقط الدموع ..

obeikandl.com

obeikandl.com

على مثل هذا .... لا تسقط الدموع ..

لا أعــرف مــاذا دهـاني... ولا أعــرف لماذا أنـا حــزينـة... وإني أتساءل الآن، هـل هناك شيء يستحق كل هذا الألم، أو بمعنى آخر... هل هو يستحق كل هذا الندم... فلربما لو استمريت معه لأصابني أكثر مما أنا فيه الآن... ولكني على كل حال لا أستطيع أن أنكر أني قد عشت معه "بعض" الأيام الحلوة... فمنذ أن وعيت على الدنيا كان هو كل شيء في حياتي، لا أبالغ إن قلت إن أحمد ابن خالي كان حلماً لكثير من فتيات العائلة، حتى وإن بالغت في ذلك سواء كنت صادقة أم لا... فالذي أعرفه ولا أستطيع أن أخفيه ولا أخدع نفسي فيه، هو أن أحمد كان حلماً لي على الأقل، وهذا يكفي...

ففي اليوم الذي قالت لي فيه أمي إن أحمد قد تقدم لخطبتي لم تسعني الدنيا من الفرحة حينها، ومن شدة فرحي وخجلي في آن لم أستطع أن أجاوب، حتى عندما كررت أمي السؤال عن رأيي في الموضوع اكتفيت بأن قلت بهدوء: "الله يسهل... أحمد أفضل من غيره"، مع أن في داخلي جسداً يطير، وأحاسيس ترف ودقات قلب تهتف "أحمد ليس أفضل من غيره فقط، بل إنه شاب لا مثيل له"... علمياً حاصل على شهادة الماجستير في القانون، ويحضر للدكتوراه في الولايات المتحدة

الأمريكية، أخلاقياً لا أحد يعيبه، بل لا أحد يستطيع إلا أن يمدح فيه، شكلاً وسيماً لحد أنه كان حديث فتيات العائلة... أما خفة الدم وطلاقة اللسان فقد وضعته قصة تلوكها ألسن شبابها... إنه فعلاً حلم يستحق أن أعيش من أجله، ويستحق أن أفرح به وأقبله بلا تردد...

وبعد مضي حوالي سنة على زواجي به قضيتها في ولاية دنفر بالولايات المتحدة لتحضير الدكتوراه وإكمال ما تبقى منها بالنسبة له... بدأت أحس بالبرود في علاقته معي، وكنت دائماً أعزي نفسي بأن دراسته ومشاغله قد أشغلته عني "لا يهم... كلها فترة بسيطة وننتهي من هذا الهم المسمى دراسة"... فلا بد أن أضحي، فأحمد يريد الدكتوراه... وأنا أريد أحمد...

واستمريت معه، وكتمت همي، وضحيت بوقتي من أجل توفير كل سبل الراحة له، دون أن أنتظر كلمة شكر... فيكفيني أن أحمد سعيد بدراسته وأنا سعيدة به...

كنت أفعل ما يريد... كان يطلب وأنا ألبي، كان يأمر وأنا أنفذ، كان يهيج وأنا أتقبل، كل ذلك وأنا صابرة... فأحمد يستحق...

حتى علاقاته مع صديقاته في الجامعة، كانت تأكلني الغيرة كلما رأيت ابتسامة تخرج من شفتيه لإحداهن، أو سمعت ضحكاته ترن على أسماعهن، وكنت إذا فتحت معه الموضوع يجيب بهدوء "لا تكوني سخيفة... كل شيء يصير قدامك في البيت"...

وكنت أقتنع قليلاً، خاصة وأن الاجتماعات ـ التي تتم في شقتنا ـ تكون في إطار علاقات جامعية كما أرى، وأيضاً فإنهن يأتين مع أصدقائهن، أو كما يسمونها لديهم في الغرب بـ (البوي فرند!!!)... هم أحرار ولا يهمني ذلك فهذه عاداتهم وتقاليدهم، أما أنا فلم يكن يهمني في حياتي سوى..."أحمد"

وفي إحدى المرات، دخل علي أحمد في المطبخ، وأنا أعد طعام الغداء وفاجأني بسؤالي إن كنت أرغب العودة إلى الرياض هذه الأيام... في البداية فرحت بهذه المفاجأة الجميلة، خاصة وأن لي ما يقارب السنة لم أر فيها أهلي، ولكني وقبل أن أهم بالإجابة بنعم، خشيت على مشاعره من أن يفهمني خطأ، ويعتقد أنني قد أصابني الملل، ففضلت أن أعطيه المجال بأن يكون الرأي رأيه فأجبت بأدب: على كيفك... الرأي رأيك...

- (... ok) جهزي نفسك خلال أسبوعين بالكثير - إن شاء الله - تكونين في الرياض...

- (فاستغربت عندما قال "تكونين"، وسألته على عجل): تكونين؟؟؟، وأنت؟؟

- (وأجاب بعد أن أقفل الثلاجة وأخرج منها قنينة ماء): لا... أنا عندي بعض الأشغال ... (ثم فتح القنينة وشرب منها مباشرة،

واستطرد قائلاً): أنت روحي... وأجلسي هناك شهر عند أهلك وبعدها ترجعين...

- خير إن شاء الله...(قلتها باستسلام، خشية أن يضيق بي)...

وخلال الأسبوعين بدأت أجهز نفسي للعودة إلى الرياض، وبدأت مع أحمد في التسوق لشراء بعض الهدايا والمستلزمات الخاصة بي وبأهلي وبأهل أحمد، وتكررت زياراتنا لمركز المدينة للتجول في أسواقه أربع مرات لم يبخل فيها علي أحمد بشيء من الناحية المادية، ولكن لا أعرف لماذا أحسست أنه بخيل علي جداً في مشاعره وأحاسيسه ، فقد كان دائماً ساهم البال، سارح الفكر عني، حتى عندما أحاول أن آخذ رأيه في بعض المشتريات لا أسمع منه سوى "على كيفك... أو لا... أو ياللا بسرعه تأخرنا"، وكنت حينها لا أعلم، هل هي وساوس شيطانية تنتابني؟ أم أن هذه هي طبيعة أحمد؟ أم أن حبي له يجعلني أطلب المزيد؟، لا أعرف.

وحان موعد سفري إلى الرياض، وأخذني أحمد إلى العاصمة قبل موعد الرحلة بيوم، وذهبنا إلى أحد المطاعم، وجلست لحظات كانت من أسوأ لحظات عمري بعد زواجي... فأحمد الذي أراه أمامي غير أحمد ابن خالي... أحمد الذي خطبني من أهلي، فأحمد المتحرك الجذاب في كل شيء، تحول إلى أحمد ممل...بارد، أحمد الذي لم يكن يحسب للوقت حساباً، أصبح أحمد الذي لا

تكاد تمر دقيقة إلا يرمق ساعته بعينيه وكأنه قد أصابه الملل، حتى أني عندما صارحته بشيء مما في نفسي، وخاصة بكثرة نظراته للساعة، كان يتحجج بقوله: أخاف أن تفوتك الرحلة...

وسكتّ...محاولة تصديقه، مع أن الرحلة باقي عليها حوالي ٨ ساعات، فليس هذا وقته، وفي النهاية صدقته مرغمة لأنه لا يوجد حل لدي سوى التصديق...

وقبل أن يحين موعد الرحلة بثلاث ساعات تقريباً انطلق أحمد بي إلى المطار، وأنهى إجراءات السفر وأدخلني إلى قاعة المغادرة وأوصاني بالسلام على أهله وأهلي ثم سلم علي... وذهب...

وجلست وحيدة في قاعة المغادرة، لا أعلم سر هذه العجلة من أحمد ... وهل هذا طبعه الحقيقي بدأ يظهر لي أم أن ما يحدث ليس سوى شيء عادي نظراً لمشاغله وتفكيره الدائم في دراسته ... ربما الأخيرة، وحاولت إقناع نفسي بذلك ... ثم تنهدت كما لم أتنهد من قبل، وبدأت تدريجياً أنسى التفكير في أحمد، وبدأت بالتفكير في والدتي ووالدي وأخواتي وإخواني وقريباتي وصديقاتي وجميع من أعرف، وفي الرياض ومعالمها، برج المملكة والفيصلية، والمتع الموجودة فيها حتى وإن كانت نادرة وقليلة إلا أن الإحساس بفقدانها كإحساس السمكة إذا فقدت البحر .... وآآآه يالرياض.

❋ ❋ ❋

– ما شاء الله، ماشاء الله، الحمد لله على السلامة (قالها لي والدي مبتهجاً بعد أن دخل ورآني أمام حقائبي المفتوحة، والمبعثرة لفرز الهدايا، خاصة وأن أبناء وبنات أخواتي وإخواني لم يتركوا لنا فرصة لترتيب الأشياء، فقد هجموا على الشنط كصياد يهجم على فريسته، وذلك للبحث عن هدية من هنا، أو لعبة من هناك، وقمت وقبلت رأس والدي قائلة له): الله يسلمك.

– عسى ما تكوني تعبتي من الرحلة؟

– لا أبداً الحمدلله ... تسهلت ولله الحمد ..

– وأحمد كيف أحواله هناك؟

– الحمدلله ... يسلم عليك ...

– وأنتِ ... إن شاء الله مرتاحة معه؟

– الحمدلله .... (طبعاً أسئلة والدي لم تكن إلا من باب الكلام الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، فهو لن يعيرني اهتماماً إذا قلت له أني غير مرتاحة، حتى وإن أردت أن أقول له ... فماذا أقول؟ هل أقول إنه تغير وأصبح لا يتكلم كثيراً؟ أم أقول إنه أصبح يحسب أوقاته معي بالدقيقة؟ أم أنه أخذني إلى المطار سريعاً؟ فهذه الأسباب جميعها لا تعني الآباء بشكل عام، بل يعتبرونها أسباباً سخيفة لا تستحق الذكر أو بمعنى آخر "دلع بنات"، فالرجل ما دام أنه يصرف على امرأته و"يستر" على بنتهم فهذا يكفي) ...

obeikandl.com

وبعدما وصلت إلى الرياض بساعتين تقريباً، وجلست مع أهلي، أخذت هاتفي النقال، وبدأت بالاتصال على أحمد بالشقة كي أبلغه بوصولي، ولكن لا أحد يرد، ثم اتصلت على هاتفه النقال وأيضاً ... لا إجابه "قد يكون لفارق التوقيت بين السعودية وأمريكا سبب، فلربما كان في هذا الوقت نائماً"، ولم أشأ أن أشغل رأسي بأفكار لا معنى لها ففضلت الاسترخاء والحديث مع أهلي ثم النوم.

وبعد ثلاثة أيام من اتصالاتي على أحمد دون أن يرد علي، بدأت تساورني الشكوك خشية أن يكون أصابه مكروه لا سمح الله، وكنت إذا سألني أحد عن أخباره أجيب أنه بخير حتى لا أزعج أحداً بالتفكير فيه خاصة والدته التي كان آخر اتصال منه لها قبل ثلاثة أيام تقريباً، وتحديداً في آخر يوم لي هناك، وعلى الرغم من ذلك فهي لم تقلق عليه كونه في الأساس ومنذ سفره لتحضير الماجستير في الولايات المتحدة كان قد اتفق معها على أن اتصالاته ستكون أسبوعية متحججاً بعدم توافر الوقت وقلة المادة، مع أن ما رأيته وعايشته كان العكس، فالقضية لم تكن وقت بقدر ما كانت عدم مبالاة إلا بنفسه فقط، وامتحان قدراته في كيفية جذب الآخرين إليه من الجنسين دون أي اعتبارات أخرى سواء كانت دينية أو اجتماعية أو حتى نفسية للمحيطين به ...

وبعد مضي أسبوع تقريباً من وصولي، وبعد محاولات عديدة قضيتها في الاتصال على أحمد لم أتمكن خلالها من سماع صوته، إذ بأمي تخبرني عن طريق سنترال المنزل بأن امرأة خالي تريدني على الهاتف لتكلمني ... رفعت السماعة ... وبعد أن بادرتها بالتحية وردت علي بأحسن منها، قالت بهدوء: مها .... ممكن أسألك سؤال؟

- (واستغربت من طريقة كلامها، وأجبت بطريقة عادية لأنه لا شيء هناك لدي لأخفيه): تفضلي

- متى آخر مرة اتصلتِ على أحمد؟

- ليلة أمس ...

- (وقالت بطريقة أحسست فيها أن هناك شيئاً ما قد حدث): مها ... أرجوك جاوبيني بصراحة

- (ولحظتها خشيت أن يكون قد حدث مكروه لأحمد، خاصة وأني فعلاً لم أكلمه ولكني قلت لها ذلك حتى لا تحس بالقلق عليه فرديت وأنا مصرة، على أمل أن أتصل بأحمد بعد ذلك): ليلة أمس خالتي ...

- وكيف أخباره؟

- بخير والحمدلله، خير يا خالتي؟

– أبداً ... لكن أحمد اتصل علي اليوم، وبصراحة قال كلاماً لم أكن أتمنى أن أسمعه منه.

– كيف يعني؟

– قال إنك من لحظة وصولك لم تتصلي عليه، ولم تسألي عن أخباره ...

– (في البداية أحسست بالارتباك، فآخر شيء كنت أتوقعه أن أحمد يتصل على أمه ويتكلم عني بهذه الطريقة، واستطردت خالتي بنبرة تأنيب هادئة): بصراحة يا مها ما كان هذا العشم فيك ... كنت أتوقعك أعقل من أن تنسي أن تتصلي بزوجك ... المرأة العاقلة هي التي تحافظ على زوجها، وهي التي يكون زوجها أهم عليها من الدنيا وما فيها، لا أن تصل إلى أهلها وتنسى زوجها ... عموماً الموضوع هذا سيكون بيني وبينك وبين أحمد، ولن يكبر الموضوع ونوصله إلى أهلك ... وسأعتبر ما حدث كأنه ما كان، وصححي خطئك واتصلي على أحمد ...

– (وحاولت أن أبدو متماسكة أكثر حين قلت): لكن أنا فعلاً اتصلت على أحمد ...

– كيف يعني ... هو يكذب عليَّ؟! ...

وحاولت إقناعها بصدق كلامي، وأن كل ما حدث ليس إلا لأني

لا أريد أن أقول لها شيئاً خوفاً عليها من أن تقلق عليه، وتظن أنه قد حدث له مكروه، ويبدو أنها لم تقتنع بكلامي حين قالت ببرود: عموماً ... أنا مثلما قلت لك ... لا أريد أن أكبر الموضوع، أنتِ اليوم اتصلي عليه وكأن شيئاً لم يكن ...

- (وقلت في استسلام احتراماً لها): خير إن شاء الله، لكن صدقيني يا خالتي مثلما قلت لك، أنا اتصلت عليه ولكنه لا يرد علي، و خشيت أقول لك خوفاً على شعورك كأم أن تروح أفكارك لبعيد

- عموماً جزاكِ الله خيراً، ومثلما قلت لك اتصلي عليه اليوم ... توصيني بشئ؟

- لا.. شكراً ...

وأقفلت السماعة ...

... وأول شيء فعلته بعد ذلك هو الاتصال على أحمد .... الذي لم يرد كالعادة ...

وبدأت في التفكير ... "هل أتصل على خالتي؟ ... وهل أخبر والدتي؟ ... أم لا ... فلربما لو أخبرتها لكبر الموضوع وأصبحت مشكلة من لاشيء ... ثم ماالذي طرأ على أحمد حتى يقول عني كلاماً مثل هذا؟" ... عموماً قررت ألا أتصل على خالتي، وألا أعاود الاتصال على أحمد على الأقل حالياً .

وعند غروب الشمس، أخذت هاتفي النقال وعاودت الاتصال على أحمد ...

- هلا ... (قالها أحمد من خلال الهاتف) ..

- هلا أحمد ...

- الحمدلله على السلامة

- الله يسلمك ...

- بدري (قالها أحمد باستنكار)

- بدري من عمرك (قلتها وأنا لا أريد أن أفتح الموضوع، فالمهم عندي أنه رد) ...

- أخيراً أتصلتي ...

- (وهنا كان لا بد أن أوضح موقفي خاصة وأنه هو الذي فتح الموضوع): كلمتك أكثر من مرة، ولكنك لا ترد ...

- لا أذكر ..

- لا تذكر؟ ... كيف؟ ... أنا متأكدة ... تأكد من جوالك، مع إني كلمتك على الجوال، وعلى البيت، ولكن لا مجيب ...

- (فقال ببرود): جوالي فاضي ... لا مكالمات لم يرد عليها ولا هم يحزنون ...

obeikandl.com

- يمكن يكون جوالك بعيد عنك أوقات اتصالاتي ...

- أبداً ... جوالي معي طوال الوقت ...

- (ثم قلت محاولة تغيير الموضوع رغبة مني في عدم الخوض فيه أكثر من اللازم): عموماً ... المهم أنت ... كيف أخبارك؟

- (فأجاب وكأنه ما زال في نفسه شيء): الحمدلله ...

- (فقلت محاولة تلطيف الجو): كيف دنفر من دوني؟

- مثل ما هي بوجودك ....

- (فتفاجأت برده البارد، فقد كنت متوقعة رداً أفضل من ذلك حتى ولو كان من باب المجاملة، لكني بلعتها مرغمة واستمريت على طريقتي الأولى، وقلت ضاحكة مظهرة أن الموضوع مجرد مزحة): لهذه الدرجة مليت مني؟

- لا ... لكني لا أعرف المجاملة ...

- وهذا الذي يعجبني فيك ... (واستطردت) ... على الأقل اعترفت أنك لم تمل مني ..

- مؤقتاً ... ممكن ..

- (وكانت هذه الصدمة الثانية والتي حاولت بلعها على مضض مثل الأولى، فقلت له مظهرة أني فهمت الموضوع على أنه مزاح

obeikandl.com

أيضاً، مع أني لا أنكر أن هذه قد تكون جزء من الحقيقة إن لم تكن هي الحقيقة الكاملة): مؤقتاً .... شكلك ناوي تمل؟ (قلتها محاولة ترطيب الجو) ...

– (فقال ببرود): الله أعلم ... هذا كله في علم الغيب ...

– (وكانت هذه الثالثة، وكما يقولون "الثالثة ثابته"، ففضلت إنهاء المكالمة بسلام قبل أن تشتعل): عموماً ... أهم شيء أنني اطمئنت عليك، شكلك مشغول، ولا أريد أن أطيل عليك ... توصي بشيء ...

– وأنت متصلة علي حتى تقولي شكلك مشغول؟!

– لا والله ... لا أقصد ... ولكن حسيت أنك مشغول، عموماً إذا تريد أن نكمل، هذه أبرك الساعات ... آمرني ...

– (ثم قال ببرود قاتل): لا عادي ... مع السلامة ... توصيني بشيء ..

– سلامتك ...

– أجل سلام .. (ثم أقفل السماعة، وأقفلت السماعة بذهول ومعه فتح الباب لتساؤلات كثيرة راودتني عن سبب هذا التغير في الأسلوب، وهذه الطريقة الجديدة في التعامل منه)

وبدأت أعيد حساباتي من جديد ... "ما الذي اقترفته بحق أحمد؟ ... وما الخطأ الذي عملته حتى يبدأ يعاملني بهذا الأسلوب؟ ... في الحقيقة لا أتذكر" ... ووضعت هاتفي النقال على الطاولة الموجودة في غرفتي، وجلست على السرير أفكر أكثر وأكثر، وبدأت أعصر مخي، وأمسكت رأسي بيدي اليمنى، وهززت شعري بكلتا يديّ، أفكارٌ بدأت تقتلني ... "ما الذي غير أحمد عني؟ ... هل هناك امرأة أخرى في حياته؟ ربما ... فالحياة في أمريكا تختلف، وكثرة احتكاكاته مع زميلاته في الجامعة قد يؤدي إلى ذلك" ... ثم استلقيت، وعيناي إلى السقف ... "ولكن من تكون ياترى؟ ... فجميع الفتيات اللواتي يعرفهن مرتبطات مع رجال، سواء كان بزواج شرعي أو على طريقة ما يسمونه بـ " البوي فرند" ... ثم عدلت جسدي إلى اليمين، وأصبحت يدي اليمنى على خدي الأيمن ويدي اليسرى على الجزء الأيسر من جسمي، وعيناي ناحية الحائط ... " لا ... لا ... يا مها لا تكوني سخيفة ... فأحمد ليس من هذه النوعية ... فلربما الذي غيره هو مشاغله ودراسته ... فأحمد شاب مجتهد وعملي ... لا هم له في الدنيا إلا دراسته وتحصيله العلمي بالإضافة إلى طموحه العالي بإكمال دراسته للحصول على مناصب عليا" ... هذا ما سمعناه عنه، وهذا ما لمسته فيه من خلال عشرتي معه ... "ولكن ... لو كان الموضوع موضوع دراسة ... فلماذا يتغير من ناحيتي؟ ... ولماذا ينكر أني اتصلت عليه؟ ... ولماذا يخبر والدته بذلك حتى ولو

كان صادقاً؟ ... (ثم تنهدت بيني وبين نفسي) ... آآآه يارب ... أرحني من هذه الظنون، وأرشدني إلى طريق مستقيم" ... ولم أجد حلاً أفضل من أن أتعوذ من الشيطان وأنزل إلى الأسفل مع أهلي، فالمدة المحدودة لي للجلوس في الرياض لا تتجاوز شهراً مضى منها ما يقارب الأسبوعين.

❋ ❋ ❋

لم يبق على عودتي إلى الولايات المتحدة سوى بضعة أيام لم يتخللها سوى اتصال واحد مع أحمد غير ذاك وهو كسابقه قد تم من قبلي غير بعض الاتصالات الأخرى التي لم يرد عليها، أما أحمد فلم يكلف نفسه حتى ولو برسالة عبر الجوال، عموما لا يهم فالمهم أني سأعود لأحمد.

وبدأت خلال هذه الفترة بالتجهيز للعودة إلى الولايات المتحدة بشراء بعض المستلزمات الخاصة بي وبالضيف القادم بعد خمسة أشهر بمشيئة الله، وبالملابس الخاصة به أو بها، وأيضاً تخصني خلال فترة انتظاري له أو لها، خاصة وأن آثار هذا الضيف قد بدأت تظهر على جسمي.

وحان موعد سفري إلى الولايات المتحدة هذا اليوم تحديداً، وبعد أن تناولت طعام العشاء مع الأهل أخذني أخي الأكبر مني بثلاث سنوات تقريباً إلى المطار ...

وبعد أن وصلت إلى المطار في الولايات المتحدة، استقبلني أحمد بابتسامة باردة: الحمدلله على السلامة ...

- الله يسلمك ...

ودفع العربية المحمول عليها حقائبي، ولم يزد عن ثلاثة أسئلة حول الرحلة، والأهل، وما إذا كنت ارتحت وغيرت جوّاً!! ... فقط لاغير!! ... ثم سكت ولم ينبس بكلمة طوال الطريق إلى دنفر، إلا ردود على أسئلتي عن أخباره بكلمات محدودة على شاكلة "الحمدلله"، "الله يسهل" ... إلخ، وأثناء الطريق حاولت كسر حاجز الصمت وداعبته قائلة : هاه ... كيف دنفر بوجودي؟! .. وإلا مثل ماهي وأنا غير موجودة؟

- (والتفت إلي ببرود): إلى الآن لم نصل إلى دنفر ...

- يعني ... سؤال استباقي للأحداث ...

- إذا وصلنا - إن شاء الله - أقول لك ... (ثم توقف عند إحدى المحطات المزروعة على الطريق لتعبئة الوقود، ونزل قائلاً): تبغين شيئاً من البقالة؟

- سلامتك ...

ونزل، وزادت الحيرة في خاطري، فقد كنت متوقعة مقابلة أكثر حرارة من هذه، فأحمد لم يسألني عن شيء يدل على إحساسه بي،

ولم يتكلم بأي كلمة تدل على أني كنت غائبة ولو مجاملة، بل إنه حتى لم يلاحظ التغير على جسدي نتيجة الحمل، حتى وإن لاحظ فهو لم يذكر شيئاً عن المولود المنتظر الذي هو ولده وولدي في نفس الوقت سواءً كان ذكراً أو أنثى، فقد تجاهل ذلك عمداً أم سهواً، وفي كلتا الحالتين الأمر لم يعد يطاق ... وجلست وحيدة أفكر بهذه التغيرات في شخصية أحمد، وانتظرت قليلا ....

وحين عاد رأيت الكيس الذي معه وقد ملأه بثلاث قنينات مياه معدنية صغيرة، وجريدة بالإضافة إلى علبتي بسكويت، وفي يديه كوبين من الشاي ... وعندما وضع الكيس في المقعد الخلفي بالسيارة بعد أن وضع كوبي الشاي بين المرتبتين الأماميتين طلبت منه قبل أن يعود إلى كرسي القيادة أن يحضر لي علبة مشروب غازي، ونظر إلي ببرود قائلاً: قبل لا أنزل قلت لك تبغين شيئاً؟ قلتِ لا ... والآن تبغين أرجع للبقالة مره ثانية؟!!!

- آسفة ... لكن اشتهيت أشرب حاجة باردة الآن ...

- عسى ما شر ..

- (وقلت مداعبة): يمكن وحم ...

- وحم !!! ... خير إن شاء الله ... (ثم عاد إلى البقالة ... في الحقيقة لا أعرف لماذا طلبت منه ذلك، كل ما أعرفه هو معرفة ردة

فعله ناحيتي، وحيال طلباتي، حتى عندما ذكرت له كلمة "وحم" فلم أكن أعنيها بالمعنى الحقيقي بقدر ما هي محاولة للفت نظره حيال بطني وما بداخله، ولسحب تعليق من شفتيه ولو مجاملة ... ولكن مع الأسف لا جديد ... فقد أتى بأربع علب مشروب غازي الذي طلبته، وعاد إلى السيارة، ووضع الكيس في المقعد الخلفي وأدار محرك السيارة وانطلق وكأن شيئاً لم يكن ... بل وكأني غير موجودة ... وأكملنا الطريق إلى دنفر وعينيه إلى الأمام، وعينياي ناحية الشباك، اتأمل أطراف الطريق، ورميت بأفكاري بعيداً مقتنعة داخل ذاتي أن هذا ليس وقتاً للمناقشة في أي موضوع)

وفي الأيام الأولى من بقائي في دنفر بعد العودة من الرياض لم يتغير شيء في تصرفات أحمد، فاليوم الأول يشبه الثاني والثاني يحاكي الثالث والثالث نسخة من الأول ... وهكذا، يستيقظ من نومه، يتجه إلى الجامعة، ثم يعود مساءً ويتناول عشاءه، يقرأ الصحف، ويقلب في القنوات الفضائية، ويقرأ في مواده ويكمل إعداد ما بدأه من واجبات تخص الجامعة، ثم ينام ...

الحديث بيني وبينه لا يعدوا أن يكون سوى أحاديث عادية عن نوعية الطعام، والأشياء التي أريدها من الخارج، أما غير ذلك فلا ... أما عندما يأتي زملاؤه في الجامعة سواء ذكوراً أو إناثاً يتحول أحمد إلى شخص آخر، ممتلئاً مرحاً، يحلق حيوية ... وعندما

يذهب الجميع يعود إلى صمته، وشروده ... وطوال هذه الفترة لم أتحدث معه في شيء خاصة ما تحدث به لأمه، وذلك لسبب بسيط، وهو أني كنت أتحين اللحظة المناسبة للحديث معه في ذلك، لحظة أراه فيها أكثر حيوية وتقبلاً ليكون الحديث متبادلاً بيني وبينه، إلا أني وبعد أسبوع تقريباً من عودتي من الرياض رأيت أن هذه اللحظة قد لا تأتي أبداً، لذلك قررت أن آتي بها بنفسي، وقلت له في يوم الأحد بعد أن وضعت طعام الغداء على الأرض بهدوء: أحمد ...

- (فقال ببرود وهو يقطع قطعة اللحم بيده): هلا ...

- ممكن أسألك سؤال؟

- تفضلي ...

- لماذا اتصلت على أمك وقلت لها أني لم أتصل عليك؟

- (فقال ببرود): هذا الموضوع انتهى واتركينا منه ...

- كيف أتركه وأنت تقول لأمك كلام عني لم تتأكد منه ...

- والله ليست قضية أني أتأكد أو لا أتأكد، المهم أن الموضوع انتهى ... ومثل ما يقولون كلام في الماضي نقص في العقل ...

- لكن ...

– (ثم ترك الأكل وقام قائلاً): ضاقت عليك الدنيا إلا تتكلمين في هذا الموضوع وقت الغداء؟

– لا ..... لكن ...

– (ثم ذهب إلى الغرفة، وجلست وحيدة في الصالة ... وبعد دقائق، وجدته قد غير ملابسه وهم بالخروج، فسألته): أحمد ... إلى أين؟

– (فقال متبرماً): سأبحث عن مكان هادئ آكل فيه ... (ثم فتح الباب وخرج، وأغلقه خلفه بحنق، وتركني وحيدة في مكاني ... وبدأت فعلاً بتأنيب الضمير، والإحساس بالذنب، فالوقت فعلاً لم يكن مناسباً للحديث في مثل هذا الموضوع، ويبدو أني استعجلت، فانا صبرت أسبوعاً كاملاً لم اتكلم فيه عن هذا الموضوع، ويوم تكلمت ... لم أجد إلا هذا الوقت؟! ... وقت الغداء!!.... فعلاً ضاقت علي الدنيا إلا أتكلم هذا الوقت؟! ...)

وجلست على الكنبة، ويدي اليسرى على خدي الأيسر، ودارت عيناي على أطراف الصالة من اليسار إلى اليمين، ولمحت الشباك المطل على الحديقة الداخلية للعمارة، ثم التلفاز الموضوع داخل دولاب عودي اللون، أعلاه يوجد صورة لي وأحمد ليلة زفافنا، بالإضافة إلى بعض الكتب والمجلات موزعة على أطراف الدولاب، ثم باب مؤد إلى غرفة النوم بجانب التلفاز، ثم فتحة باب المطبخ،

وأخيراً وعلى يميني، وتحديداً الجدار الذي تستند إليه الكنبة التي أنا عليها يوجد باب مؤدٍ إلى داخل الشقة ... ثم وقعت عيناي على أرضية الشقة، وإذ بالغداء على وضعه لم يتغير منه شيء سوى تغير في شكل اللحمة من آثار القطعة التي اقتطعها أحمد مع شيء من "اللخبطة" في الجزء الخاص به، وكوب ماء لم يشرب منه شيئاً بالإضافة إلى صنف آخر، وطبق حلا لم يمس، ووجدت أنه من التبذير أن أرمي هذا الأكل في القمامة، لذا فضلت أن ألملم الأكل، وأضعه في الثلاجة، حتى يتم تسخينه وقت العشاء ... هذا في حالة إن عاد أحمد وكانت أعصابه أهدأ ...

ومر أسبوع آخر لم أستطع أن أجد فيه فرصة مناسبة للحديث في الموضوع، ولم ألحظ فيه تغييراً في طبع أحمد لا في شروده، ولا في برودة، ولا صمته أو سكونه، حتى أني كلما حاولت فتح الموضوع يتحجج بأن الوقت غير مناسب، فإن فتحته وقت العِشاء، تعذر بأن هذا وقت النوم وأن عنده دراسة في الغد، وإن فتحته مساءً، تأسف بأنه مرهق بسبب خروجه للتو من الجامعة، وإن تكلمت يوم "سبت"، قال: "هذا يوم إجازة ولا بد أن أرتاح فيه"، وإن تحدثت يوم "أحد" اعتذر بأن "غداً لديه امتحان أو بحث لا بد من تسليمه، ولا وقت لديه لمناقشة مثل هذه الأمور" ... وهكذا تمضي أيامي، في كل يوم حجة، ولكل ساعة اعتذار، ولكل دقيقة تأسف، وكأن لديه صندوق

أعذار يخرجها كيف يشاء كما يخرج الحاوي الأفاعي، أما أنا ... فليس لدي أحد أشكي له إلا الله، حتى زوجات بعض الطلاب السعوديين المبتعثين واللواتي تعرفت عليهن في الغربة، لم أكن أجد عندهن راحة كافية للحديث في موضوعاتي الخاصة، فكل له هم، وكل لديه مشكلاته ...

وبعد أسبوعين تقريباً قررت أن أحسم هذا الموضوع، وأن أفاتح أحمد بما في نفسي، فليس هناك أسوأ من هذه الحال حال، وليس أسوأ من هذا الوضع وضع، وليس لدي ما أخسره أكثر مما خسرته ...

وفي أحد أيام السبت أخذت القرار النهائي بمفاتحته في الموضوع، واخترت توقيتاً مقنعاً بالنسبة لي، لأني أعلم أن أي توقيت سأختاره كنت سأجد الحجة جاهزة منه، وبعد الغداء بساعة تقريباً أشرت عليه بأن نأخذ فنجان قهوة في أحد المقاهي المنتشرة في مركز المدينة (city center) فوافق على مضض بعد أن حاول أن يتحجج بأكثر من حجة، وكنت في كل حجة يلقيها عليَّ أرد عليه بأكثر من رد، وكنت في قرارة نفسي مصرة على الخروج مهما كانت الحجج حتى أفتح الموضوع، فأنا ليس لدي ما أخسره ...

وحينما وصلنا إلى أحد المقاهي دخلنا وعلى يسارنا قسم إعداد القهوة، وعن يميننا "الكاشير"، واتجهنا بخطوات باردة،

وجلسنا على آخر طاولة في زاوية المقهى عن اليمين، وطلب أحمد فنجان قهوة أمريكية دون حليب، أما أنا فطلبت مثلما طلب ولكن مع حليب ...

وبعد أن وضعت كيسين صغيرين من السكر في فنجاني، وأثناء إذابتي للسكر في فنجاني قلت له وعيناي ناحية عينيه المركزتين ناحية مجلة كانت قابعة على الطاولة: حلو المكان ... صح؟

- (وقال وعيناه ما زالتا ناحية المجلة يقلب فيها بيده اليمنى أما اليسرى فكانت مشغولة بإذابة السكر في فنجان قهوته): يعني ...

- (وسحبت المجلة ووضعتها على يميني وأقفلتها، وقلت محدقة في عينيه زارعة ابتسامة على شفتي): أحمد ... نحن هنا حتى نتكلم مع بعض ... لا من أجل قراءة مجلات ...

- (وبعد أن وضع الملعقة على الطاولة تنهد قائلاً): تكلمي ...

- (واستجمعت قواي قائلة): أحمد .... أنا أحس أنك متغير علي ...

- (وابتسم ببرود): كيف يعني؟

- يعني ... أنت غير أحمد الأول ...

- (فقال ببرود): وأنتِ عندك أحمد أول وأحمد ثان؟

- (فهززت رأسي بالإيجاب): أكيد ...

- والفرق بين الاثنين؟

- أحمد الأول ... مرح ... متحدث لبق ... مميز في كل شيء ... والأهم من كل هذا أنه صادق

- وأحمد الثاني ؟ ... ممل ... متحدث سخيف ... وكذاب؟! ...

- (فسكتّ ... وبدأت أحس لو أني لم أتكلم أفضل، فأنا لم أقصد أن أثيره، ولكن كل ما كنت أقصده أن أذكره بنفسه سابقاً، ثم استطرد قائلاً): على العموم يا مها ... أنا عارف إنك تبغين تفتحين نفس الموضوع ... صح؟

- (فقلت مترددة): لا ... ليس بالضبط ... أنا لا يهمني الموضوع نفسه ... إذا كان تتكلم عن موضوع شكواك لأمك ... (ثم استدركت) ... يعني بصراحة لا أخفيك أنه هو السبب ... لكن ليس هو الأساس ...

- وما هو الأساس؟

- أنت ...

- أنا؟

- نعم ... أنت ... أنت تغيرت يا أحمد ... ولو كان الموضوع

موضوع شكواك لأمك لكان هانت، وكان حلينا الموضوع في وقته، لكن المشكلة فيك أنت ... أنت تغيرت يا أحمد ...

- (ثم تنهد قليلاً): بصراحة أنا أحس أني فعلاً تغيرت ... (وبدأت تنفرج أساريري، فقد أحسست ببارقة أمل أن أحمد سيتكلم ويقول عما بداخله، واستطرد قائلاً): ولو تسألني عن الأسباب ... أقول لك الله اعلم ...

- غير معقول ... لا بد يكون عندك أسباب ...

- (فارتشف رشفة من فنجانه وقال): أكيد عندي أسباب ... لكن أفضل أن أحتفظ بها لنفسي

- كيف تحتفظ فيها لنفسك؟

- لإنها أسباب تخصني أنا ... على الأقل حالياً ... وحالياً من الصعب أن أشرحها لك ... لكن في وقت ثان أشرحها لك ويمكن يكون لك دور في حلها ...

- ولماذا لا يكون الآن؟ ... على الأقل أعرفها الآن، حتى أفكر فيها، وإذا جاء وقتها يمكن يكون الحل عندي جاهز ...

- مها ... بصراحة لا أعرف إذا كان ستفهميني أم لا ...

- أنت تكلم ... وإن شاء الله يحلها حلال ...

- لكن تذكري ... أنك أنت من طلب أن أذكر لك الأسباب ...

- (فهززت رأسي بالإيجاب ... ثم أكمل قائلاً): مها ... أنا لي في أمريكا من درست الماجستير تقريباً ثلاث سنوات ... منها سنتان أعزب ... وكل هذه الفترة قضيتها في دنفر ... يعني تعرفت على ناس، وكونت علاقات مع أشكال وأنواع مختلفة من الأجناس والجنسيات ... وتعرفين ... أن سنتين ليست مدة قليلة ... لكنها عمر ... تعرفت فيها على كثير من الزملاء والزميلات، والأصدقاء والصديقات ... وتعرفين شاب في مثل عمري لابد تكون له علاقات معينة ... وأتمنى تكوني عارفة قصدي؟

- لا ...

- علاقات معينة مع زميلات، مثلاً تصل إلى أكثر من مجرد زمالة ...

- كيف يعني؟! ...

- إذا كانت أكثر من زماله ... ماذا يمكن أن تكون؟

- (فقلت متجاهلة ما يعني): بصراحة ..... لا أعرف ...

- (فأجاب وعيناه محدقتان فيني): علاقة عاطفية ... (ثم استدرك، بعدما أحس بخمول في نظراتي) ... طبعاً قبل الزواج ...

- وبعد الزواج؟ ... العلاقات هذه مستمرة؟

- العلاقات كلها؟ ... لا طبعاً ...

- وبعضها؟

- ولا حتى بعضها ... واحدة فقط ... (وأكمل بعد أن لاحظ وجومي) ... بصراحة يا مها أنا قطعتها مدة ... خاصة بعدما أصرت عليَّ الوالدة بالزواج، وحاولت بعدها أتأقلم معك (ثم استدرك) ... اسمعيني مها ... أنت بنت عمتي، وعزيزة وغالية علي، ومعزتك عندي وغلاوتك من معزة وغلاوة عمتي، وأنت بكل صراحة ألف واحد يتمناك، ولو أحد يسألني عن أفضل بنت تصلح زوجة، بدون تردد أقول أنت ... لكن بالنسبة لي ... أنا وأنت مختلفين في التفكير ... (ولم أنبس ببنت شفة ... "إلى هذا الحد بلغت به الوقاحة أن يتكلم بهذا الأسلوب؟!! عن علاقاته القديمة وغرامياته السابقة" ... وتابع) يعني ... أنا عندي طموحات مختلفة ... طريقة في التفكير مختلفة ... أشياء كثيرة مختلفة عنك، وعن طريقة تفكيرك، وأسلوبك في الحياة ...

- (وبعد أن أفقت من وعيي بعد كلامه السمج سألته): بما أنك تعرف هذا الشيء ... وأن طريقة تفكيرك مثلما تقول تختلف عن طريقة تفكيري ... لماذا خطبتني وتزوجتني، وتتركني معك كل هذه الفترة؟

– (وبعد أن ارتشف قليلاً من فنجان قهوته، تنهد قائلاً): خطبتك وتزوجتك لأن أمي اختارتك لي، وأمي كانت ملزمة عليَّ أن آخذك ...

– (وقلت مستنكرة): رجل ... طول بعرض ... وأمك تغصبك على زواج؟

– لا ... أنتِ لا تفهمين كلامي أني مغصوب عليك بمعنى كلمة مغصوب ..

– أجل كيف أفهمه؟

– أمي اختارتك لي ... ومدحتك لي ... لكن لم تغصبني ...

– يعني غشتك ... وأعطتك معلومات خاطئة

– لا ... ولا حتى هذه ...

– عجزت أفهمك ...

– أنا قلت لك من البداية ... إن هذه أسباب تخصني وصعب تفهميني ...

– من ناحية أسباب تخصك ... لا ... أما من ناحية صعوبة الفهم ... فصح ... مع أنك لم تقل هذا من البداية ... (ثم استطردت قائلة): لكن بشكل عام أتمنى أن تكون أكثر وضوحاً وتفهمني إلى ماذا تريد أن تصل؟

openkandil.com

- ما أريد أن أصل إليه هو إننا صعب أن نكمل مع بعض ... فأنت في واد وأنا في واد ... (وأكمل كلامه ومبرراته، وأنا أتأمل في هذه الدناءة الجالسة أمامي على هيئة رجل، أو بمعنى أصح "ذكر"!!! ولم أنتبه لكلامه ولا لحديثة إلى أن قال) ... صدقيني صعب تفهميني مهما شرحت وتكلمت ... عموماً أنا باقي لي ثلاثة أسابيع وأنهي هذا الفصل، وفي الإجازة سنرجع إلى الرياض، ولعلنا نحل الموضوع ودي إن شاء الله ... (ثم نادى على النادل، ودفع الحساب، وعدنا إلى الشقة) ...

❊ ❊ ❊

ومضت الأسابيع الثلاثة التي حددها أحمد لنهاية هذا الفصل كأطول ثلاثة أسابيع في حياتي، لا شيء جديد فيها، بل إن كل يوم يأتي يكون أطول من سابقه، فالحياة فيها مرت رتيبه، ومملة، كل شيء أصبح تقليدياً وروتينياً ... أصحو من نومي حوالي العاشرة صباحاً، وفيها يكون أحمد قد أمضى ثلاث ساعات في الجامعة، وأبدأ يومي بكوب من الشاي لا أكثر، وأجلس أنا وكوبي متسمرة أمام شاشة التلفاز أقلب في القنوات الفضائية بعينين مركزتين على الشاشة وذهن سارح في وضعي ونصيبي الذي كتبه الله عليَّ ... حتى يحين موعد الغداء الذي أجهزه في الموعد المحدد لعودة أحمد لا لشيء، ولكن حتى أكون على الأقل عملت الذي علي أمام الله

سبحانه وتعالى فقط لا غير، وحتى لا يكون لأحمد حجة علي أمام الله يوم القيامة ثم أمام الناس، مع أن ما قاله وما ينوي فعله وأعذاره لا حجة له فيها أبداً ...

وإذا أتى أحمد أضع الغداء أمامه دون أن أنبس ببنت شفة، فكل همي أن تنتهي هذه الفترة على خير، فقد سئمت هذا الانتظار ومللت هذه العيشة ... وما أن ينتهي وقت العشاء، حتى يجلس أمام التلفاز، أو يكمل ما عليه من أبحاث وواجبات تخص الجامعة، إما لوحده أو مع أصدقائه ومن ضمنهم "ليلى" وهي الفتاة التي أخبرني عنها قبل ثلاثة أسابيع عندما كنا في المقهى، وهي عربية الأصل أمريكية الجنسية، تدرس في الكلية نفسها والقسم والمستوى ... "يا محاسن الصدف!!" أو ربما يا مساوئها، وهي وكما يتضح لي تكبرني بقليل، يمكن بسنتين أو ثلاث أو ربما أقل، لا يهم ... وحاول أحمد خلال هذه الفترة أن يقنعني بالموافقة بأن أبقى أنا وهي على ذمته، ولكني كنت دائماً أفضل أن أبقى وحيدة على أن أكون مع إنسانة أخرى تشاركني في زوجي ...

وقد كان أحمد يكثر من قول "إذا رجعنا الرياض فكري زين ... ولا تستعجلين في اتخاذ أي قرار"، وعلى هذا المنوال كان يومي يمضي معه دائماً، ما بين صمت مطبق، ونقاشات باردة، فأحمد لم

يدع لي فرصة لأن أتمسك به، فالمبررات التي كان يسوقها، والعبارات التي يتحدث بها، والطريقة التي يطرح بها الموضوع، كلها أمور أدت إلى ما يشبه الصدمة والذهول بالنسبة لي، حتى الفتاة التي اختارها على حسابي لم أجد فيها ما يميزها عن غيرها ... ولكن ماذا أقول؟! ... هل هو غرور منه؟! ... أم أنها سذاجة؟! ..... أم أنه وكما يقولون "الحب الحقيقي" ؟؟؟!!! ... "سلام ياحب" ... و"الله يا عاطفة" ... ومنذ متى وأحمد يعرف شيئاً عن الحب والعواطف!! ربما لا هذا ولا ذاك وإنما هو النصيب الذي لا بد أن تراه العين ...

وحان موعد عودتنا إلى الرياض ...

واتجهنا إلى المطار في صمت، وأنهينا إجراءات السفر بهدوء، ودخلنا الطائرة بسكوت، وبعد نصف يوم تقريباً قضيناه في الانتقال من الولايات المتحدة إلى السعودية، وصلنا إلى مطار الملك خالد الدولي، ولم يكن في استقبالنا أحد بسبب وصولنا المتأخر ليلاً إلى مدينة الرياض، واتجهنا مباشرة إلى بيت أهل أحمد الذي استقبلتنا والدته وحيدة دون إخوانه وأخواته لوجود كل واحد منهم في بيته ... وبهدوء أخذت نفسي إلى الغرفة المخصصة لنا واستلقيت على السرير تاركة أحمد مع والدته بعد أن سلمت عليها واعتذرت منهما بأني متعبة وأريد أن أرتاح ...

❋ ❋ ❋

وفي صباح الغد ... وتحديداً عند الساعة العاشرة صباحاً ذهبت إلى خالتي في الصالة حيث "دلة" القهوه أمامها، وبعد أن سلمت عليها وقبلت رأسها جلست بجوارها وأخذت "دلة" القهوة وسكبت فنجاناً، ومددته لها قائلة: تفضلي خالتي ...

- (ومدت يدها اليمنى): تسلمين ... (وبعد أن أخذت حبة تمر، قالت): كيف حالك يا مها؟

- الحمدلله ..

- إن شاء الله مرتاحة أنتِ وأحمد؟

- الحمدلله ...

- (ثم قالت وكأنها "تمن" علي): على فكرة ... الموضوع الذي كلمتك عنه قبل ذهابك لأمريكا لم أكلم فيه أحد ...

- (وقلت وكأني لا أعرف عما تتحدث): أي موضوع؟

وبدأت تذكرني بموضوع الاتصال، بطريقة أحسست من خلالها أنها تتفضل عليّ بعدم فتح الموضوع مع أحد، وكنت أجاريها بكلامها؛ مبدية عدم الاكتراث بالأمر، إلى أن بدأ الملل يزحف إلى صدري، وقمت محاولة إنهاء الموضوع قائلة: عموماً خالتي ... تريدين مني شيئاً؟

obeikandl.com

– (ومسكت يدي قائلة): اجلسي يا بنتي ... أريد أن أكلمك في موضوع ...

– ياليت ياخالتي نتركه لوقت ثانٍ ... لأني بصراحة نسيت أن أكلم أمي وسأتصل عليها ... (قلتها وأنا لدي إحساس أنها ستحدثني في موضوع أحمد، خاصة وأن مقدمة حديثها توحي بذلك)

– (وقالت قاصدة تشويقي لسماع الحديث دون أن تعلم أني متوقعة ما سوف تتحدث عنه): حتى لو كان الكلام عن أحمد؟

– (وسحبت يدي من يدها وابتسمت قائلة): أحمد لا خلاف عليه ... رجل ولا كل الرجال (ثم اتجهت إلى غرفتي وأنا أعلم أنا ما قلته عن أحمد ليس إلا ... "كلام في كلام") ...

وفي الليل من اليوم نفسه اتجهنا أنا وأحمد وخالتي إلى بيت أهلي لتناول العشاء المعد لنا خصيصاً بمناسبة عودتنا، وكان أحمد كعادته في المناسبات الرسمية، رجل يستطيع أن يخطف الأضواء لدرجة أنك لا تستطيع أن تحكم عليه إلا بأنه شاب واعٍ، ومثقف، وذكي، ومرح، وكامل الأوصاف؛ حتى أني أتساءل حين أراه كذلك، وأتردد في مشاعري نحوه، هل أنا محقة في شعوري ناحيته أم لا؟ ولماذا أنا أكرهه حين يجب أن أحبه؟ ولماذا أحبه حين يجب أن أكرهه؟ ولماذ دائماً هذا أسلوبه؟ هل لأن هذا طبعه فقط؟ أم أنه

ليس إلا "ممثل بارع"؟ يجيد اللعب على كل الحبال، فحين أراه في الاجتماعات والمناسبات الرسمية، وأسمع حديث الناس عنه، ومدح إخواني فيه، وغبطة أخواتي عليه، أحس بالفخر أن هذا زوجي، وحين أجلس معه لوحدي، وأذكر تصرفاته معي، وأفكر في حديثه في ذلك اليوم الذي كنا في المقهى في أمريكا، وأذكر مبرراته "الباردة" التي كان يسوقها لي أحس بالأسى على حالتي ...

وبعد ثلاثة أيام تقريباً على وصولي للرياض، فاجأتني خالتي وأنا وحيدة في صالة منزلهم جالسة أقرأ في الصحف قائلة: مها ...

- (وأزحت الصحيفة من وجهي والتفت ناحيتها قائلة بأدب): «سمي» ...

- (وجلست بجانبي على الأريكة وتحديداً على يميني قائلة): أنا لي فترة وأنا أتمنى أكلمك في موضوع أحمد ... أنتِ بينك وبينه شيء؟!

- أبداً ... كل الخير والحمدلله ...

- الحمدلله ... "وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم" كل شيء في هذه الدنيا خير للمؤمن، ولكن هناك خير عن خير ... (ولم أزد إلا أن إبتسمت بهدوء، دون أن أرد بكلمة، فالمشكلة بيني

وبين أحمد فما علاقتها بالموضوع؟ حتى وإن كانت والدته، إلا أنها تابعت قائلة)... عموماً يا ابنتي أحمد قال لي عن أشياء حدثت بينك وبينه ...

– (قلت بهدوء محاولة عدم كشف أي شئ من ناحيتي):أشياء؟ ... مثل ماذا؟

– هذا ما أريد سماعه منك ... فمن العدل أن أسمع منك أيضاً قبل أن أحكم ... فأنا مثل ما تعرفيني لا أحب أن أكون كباقي "الحموات" أقف في صف ابني فقط ... ولكني أوعدك أني سأقف بجانب الحقيقة، حتى وإن كانت ضد ولدي ...

– (وعلى الرغم من أني غير حريصة بالحديث عن الموضوع، إلا أني وحتى أكون في موقع الهجوم وليس الدفاع، خاصة وأنهم كما يقولون بأن "خير وسيلة للدفاع هي الهجوم" – وهي كلمة وقعت عيني عليها قبل قليل وأنا أقلب في صفحات الجريدة، وبالتحديد في الصفحة الرياضية، مع أني لا أعلم لماذا قيلت، ولا عن أي مباراة يتحدثون، ولا ماذا يقصدون بها، ولكنها كلمة أعجبتني على أي حال ـ سألتها): وماذا قال أحمد عني؟:

– (وقالت متجاهلة سؤالي): أنا أعرف ماذا قال أحمد عنك؟ ولكن لا أعرف ماذا ستقولين عن ولدي ...

وحين سمعتها تقول "ولدي" في الثانية، عرفت أنها مهما أكدت لي على العدل إلا أنها في النهاية ستقف في صف ولدها، فلو كانت تريد العدل لقالت أحمد في الثانية بتجرد، لا أن تنسبه لنفسها!!

- (واستطردت قائلة): مها ... تكلمي ...

- (وقلت محاولة أن أحتفظ بأدبي): خالتي ... رجاءً، إن كان هناك مشكلة فالمفروض أن حلها بيدي وبيد أحمد ... لا أحب أن يتدخل أحد ...

- حتى أنا؟

- أنتِ على عيني ورأسي يا خالة ... (ثم مسكت بطني وتظاهرت بالإعياء) عموماً خالتي أنا أحس بتعب خفيف، ممكن نتكلم في يوم ثانٍ إن شاء الله ...

- (وكأن خالتي استسلمت حين قالت): وعد؟ ...

- (ولم أشأ أن أعطيها موعداً فقلت): إن شاء الله ...

❋ ❋ ❋

مضى أسبوع على الوعد الذي حاولت خالتي أخذه مني للحديث في الموضوع دون أن أوفيه لها، إلا أنها لم تصر على ذلك، غير أنها في أحد الأيام أخذتني جانباً، وبدأت تلح عليّ أكثر،

وتكلمت وقالت كل شيء قاله أحمد عني ... وهأنذا وحيدة في غرفتي - بمنزل خالي - غير مصدقة لما سمعت، جالسة على كرسي أمام المرآه، أفكر بكل ما قيل "كلمة كلمة"، و "حرفاً حرفاً"، وقمت من الكرسي واتجهت إلى السرير، واستلقيت عليه "كل هذا كان في قلبك يا أحمد!!! ولماذا؟!! ... ما الذي فعلت؟!! وما الذي بدر مني؟!! ... ولكن ... هل صحيح أن كل ما سمعته هو ما قيل فعلاً؟ ... يا الهي قتلتني الأفكار، وأحرقتني الظنون، يا ربي ... من الكاذب فيهما، أهو أحمد أم أمه؟ ... لا أعتقد أن أمه ستكذب، فهي وإن كانت ستقف في صف ابنها كعادة غالبية الأمهات، ولكن لا أعتقد أنها تريد أن تكون سبباً في خراب بيتي ... بيت ابنة أخت زوجها ... لا أعتقد ... فهي أولاً وأخيراً ليست إلا امرأة طيبة وعلى نياتها، ولا تصل إلى هذا الحد من التدبير والتفكير، ولكن حتى أحمد ما مصلحته في ذلك؟! ... آآآآه ... أرحني يا الله ... ما الذي يجري؟ ... ولكن ... لابد أن يكون هناك كاذباً بينهما، هل هي أمك يا أحمد أم أنت؟"

- رجاءً ... لا تتكلمي عن أمي بهذه الطريقة (قالها أحمد بعدما فاتحته بما في نفسي، وما قالته أمه عني نقلاً عنه) .

- أجل كيف تفسر لي الكلام الذي سمعته من الوالدة؟

- أي كلام؟

– كلامك عني ... أني مهملة، وغير ملائمة لطموحاتك، ولا أناسبك ... وبقية الكلام الذي ذكرته الوالدة ...

– أنا لم أقل إنك مهملة ...

– يعني الوالدة تكذب؟

– (فنظر إلي بحدة وقال): مها ... رجاء ... كل شيء إلا الوالدة ...

– (وتنهدت قائلة): على عيني ورأسي، لكن كيف تفسر الكلام الذي سمعت؟

– يمكن تكون الوالدة فهمتني غلط ... أو حاجة من هذا القبيل ...

– عموماً يا أحمد ... حتى لو كان بيننا شيء، لماذا نخرج الموضوع من بيننا؟ ... كان يمكن أن نحل الإشكالية مع بعض وننتهي ...

– لكن هذه أمي ...

– (ولم أتمالك أعصابي حين قلت): يووووه، أمي، أمي، أمي، يا أخي أمك على عيني ورأسي ... لكن الموضوع بيني وبينك، المفروض لا يطلع عليه أحد ...

– (ثم رمقني بنظرة حادة): من دون رفع صوت ... وإذا كنتِ تريدين أن نتكلم فالمفروض يكون هناك احترام ... وأول أسس هذا الاحترام هو احترام أمي ... فاهمة؟

– (وسألت بدهشة): وهل أنا ذكرت أمك بسوء لا سمح الله ؟!!! ..

– أساساً لو لم تكوني حاملاً كان عرفت أتفاهم معك بشكل آخر ... سلام ...

– يعني ماذا تنوي أن تفعل طال عمرك؟ (قلتها بطريقة ساخرة، ولكنه لم يرد، بل أخذ شماغه، وخرج من الغرفة دون أن ينبس ببنت شفة، وتركني وحيدة ... فقد وضح لي من خلال كلامه، وطريقة تعامله أن الموضوع ليس له علاقة بأمه، بل إنها حجج يتحجج بها حتى يتخلص من هذه الزيجة الفاشلة حسب تعبيره في بعض الأحيان ... فهو حسب ما فهمت يريد أن يعود إلى الولايات المتحدة بدوني، فأنا لم أعد متوافقة مع طموحاته، وأنه وكما أحسُ قد أعجبته الحياة في الولايات المتحدة بكل ما فيها، بل إنه صرح في بعض الأحيان برغبته في الاستقرار هناك، وأن الاستمرار في بلد متقدم مثل الولايات المتحدة خير له من الحياة المتخلفة التي تربطها العادات والتقاليد والمناسبات الاجتماعية البالية حسب وجهة نظره، حتى أني أذكر أنه قد لمح في بعض الأحيان بأنه يريد مني ترك

حجابي، لأنه وكما يقول يشعره بأننا متخلفون عن الناس وهذا ما يسبب له الإحراج، إلا أني كنت أرفض ذلك بشدة أحياناً إن أصر، أو أكتفي بكلمة "ولكني مرتاحة هكذا" إن لم يلح علي ... ولكن ما يمنعه من الانفصال عني خشية حديث الناس عنه بأنه المخطئ، فهو "يتلكك" بأعذار واهية، حتى يخرج من الموضوع دون أن يحرج نفسه، فهو أكثر ما يهمه سمعته وكلام الناس عنه فقط لا غير!! ...

❋ ❋ ❋

وبعد مدة ليست بالطويلة، بدأ الموضوع يتطور تدريجياً، من محادثات عادية إلى مناقشات حادة إلى أن وصل إلى أعلى من خصومات مفضوحة أمام الجميع، ومع كل هذا كان دائماً ما يحرص أن يبين أني المخطئة، وأنه الصح أمام الناس، فقد كان بارعاً، مميزاً في هذه الأمور، فهو "يعطيك من اللسان حلاوة ... ويروغ كما يروغ الثعلب"، فكنت أظهر أمام والدي وأخواني تحديداً بأني المخطئة، وأن كل ما سمعوه مني لا يتجاوز "دلع بنات" في نظرهم، فإذا ذكرت لهم غرامياته السابقه قالوا "طيش شباب وراح لحاله"، وإذا ذكرت بأنها ما زالت مستمرة ذكروا "بأنها دعابات من أحمد" كما أقنعهم هو بذلك، وأني فقط كبّرت الموضوع، فالموضوع بالنسبة لهم ليس إلا "غيرة نساء لا داعي لها"، حتى أتى ذلك اليوم قبل سفرنا المفترض إلى الولايات المتحدة حين اشتكى أحمد إلى والدي مني

مدعياً أنه لم يعد يطيق احتمالاً تصرفاتي وغيرتي، وأنه ـ وكما يقول ـ يريد زوجة تعينه على دراسته ومشكلاته التي يعانيها، لا أن تزيد عليه المشاكل، فخير أبي إما أن "يعقلوني" أو الإنفصال، مع الإيمان التام بأن هذا قضاء الله وقدره، وهذا ما فهمته من والدي الذي أتى إلي محاولاً شرح وجهة نظر أحمد مؤيداً له متحججاً بأن أحمد "زينة الشباب وشاب لا يعوض، وأنتِ مقبلة على ولادة وأخاف أن تتسرعي في القرار وتندمي بعد ذلك، فأمثال أحمد لا يمكن أن نجد مثله بسهوله، وبعدها ستندمين وستبكين بدل الدموع دم" ...

– (فأجبت وأنا جالسة على الكرسي بعد أن رفعت رأسي باحترام موجهة حديثي لأبي): إذا كان أكملت معه فالحمدلله على كل حال، وإن انفصلت عنه فهذا نصيبي ...

واستمر أبي محاولاً إقناعي، واستمريت في إصراري على طلب الطلاق، فالقضية لسيت قضية خلافية أملي عليه شروطي، وأستمع لشروطه ونتفق عليها، فالموضوع أكبر من ذلك بكثير، فأحمد وباختصار لا يريدني زوجة له، بل إنه لا يريد زوجة مثلي، ولايريد حتى الحياة هنا، فهو يريد زوجة متفتحة "توافق طموحاته" و "تتأقلم مع أسلوبه" ... باختصار ... زوجة "متطورة"... أما أنا فلست في نظره إلا زوجة "متخلفة"، متمسكة بعادات وتقاليد بالية ... لذلك فضلت عدم الاستمرار ...

وبعد يومين فقط، وكأن أحمد لم يصدق خبراً على إصراري فأرسل ورقة الطلاق ... وأخذت الورقة، ودخلت غرفتي، وبدأت أقلب فيها، ولا أعرف ماذا دهاني، ولا أعرف لماذا أنا حزينة، وإني أتساءل الآن ... هل هناك شيء يستحق كل هذا الألم؟!، أو بمعنى آخر هل هو يستحق هذا الندم؟!، فلربما لو استمريت معه لأصابني أكثر مما أنا فيه الآن ....

وتذكرت كلام والدي حين قال ... "ستندمين وستبكين بدل الدموع دم" ...

واستلقيت على سريري، وانتظرت دموعي أن تزحف، وانتظرت أكثر وأكثر وعيناي ناحية السقف أغمضهما وأفتحهما لأكثر من مرة فلربما ينزل شيء ولا شيء حدث ... فهل يا ترى جفت دموعي أم أنها انتهت؟! ... أم أنها توقفت في محاجري وكأنها تريد أن تقول ...

"على مثل هذا .....

..... لا تسقط الدموع " .....

التوقيع:

مهـا

إليه فقط...

obeikandl.com

obeikandl.com

إليه فقط ....

أمسكت بالقلم لإكتب فيك شعراً ... ووجدت أنك أعظم من أي قصيدة ...

حاولت أن أمدحك بسطوري ... ولكن السطور مجرد حبر على ورق، لا تفي بما أريد أن أقوله، أو أريد أن أصفه تجاهك ... فكل شئ في الدنيا سواك سراب، أو كما قيل قديماً ...

فليتك تصفوا والحياة مريرة ... ليتك ترضى والأنام غِضابُ

ليت الذي بيني وبينك عامرٌ ... وبيني وبين العالمين خرابُ

عاودت المحاولة ثانية، وإتجهت إلى المقالة ... إلا أنها توقفت أمامي، وكأنها الشمس وقت الغروب، تئن من أوجاعها لحظة الهروب، لحظة المغادرة الحزينة في كل يوم، ليحل مكانها القمر الذي يذكرني بذكراك، وتُرّجِّعٌ ملامحه ملامح وجهك المنير ...

سحبني هذا المأسور بين أصابعي، على مداد هذه المدفونة تحت نقرات ذاك الأسير، وحاولت أن أوقفه؛ لا لعدم الكتابة فيك وعنك، فهذا شرفٌ أتمنى أن أكون على قدره، راجياً من الله أن أستحقه، ولكن حتى أرتب حروفه المبعثرة أعلاه، وكلماته الهاربة أسفله، ولكني لم أستطع ...

أهو جهلاً مني؟! ... أهي قلة موهبة ونقص في الدراية؟! ... لا أعلم ... ربما أحدها، أو ربما جميعها، أو على الأرجح ليس أحدٌ منها ...

ربما وهو الأدق لسببٍ لا أعرفه، سببٌ أجهله، سبب حاولت سبر أغوار عقلي، ونبش دهاليز أفكاري حتى أعرف لماذا؟ ... ولكني وللأسف ... فشلت!! ...

أهي هيبتك؟! ... أهي عظمتك؟! ... أهو إحترامك؟! ... لست أدري!! ...

لا زلت أذكر ذاك اليوم الذي كنت جالساً فيه وإياك في صالة الجلوس في المنزل، حين شاورتك في أمرٍ ما، وكان يخص مستقبلي الدراسي، وكان لك رأي، وكان لي رأي أخر؛ فقد فضلت ترك الدراسة الجامعية وأن ألتحق بوظيفة حكومية؛ متوقعاً بيني وبين نفسي أن الطريق يبدأ من حيث أفكر أنا ... وأقترح أنا ...

لم أسمع لمشورتك، ونصائحك لي، ليس تقليلاً منك، ولا عدم إحترام لرأيك، ولكنه الشباب وغروره ... المراهقة وفورتها ... الخبرة وقلتها ... فقد إندفعت لما أريد مخالفاً لرغبتك، والتي لم تكن رغبة منك بقدر ما كانت نصيحة ناتجة من خبرة ودراية للأمور لفارق السن بيني وبينك ...

والدي العزيز ...

إغفر لي زلاتي ... فقد تعجلت في أمور لم أحسب بدايتها، فكيف لي أدري عن خاتمتها ...

أمورٌ كنت أضعها على ظهر القدر، والذي كان بالنسبة لي مشجباً أعلق عليه أخطائي، وخزانة أرمي فيها تجاوزاتي، وصندوق أنسى فيه مغامراتي!! ...

أستغفر الله العظيم، لست مقللاً منه، ولست كافراً به لا سمح الله، ففي النهاية يقول تعالى "إنا كل شئ خلقناه بقدر"، و "ما تشاؤون إلا أن يشاء الله"، وآيات وأحاديث كثيرة كلها تدل على وجوب الإيمان بالقدر، بل أن أركان الإيمان الستة من ضمنها الإيمان بالقدر خيره وشره، وأنا مؤمن به ولله الحمد، ولكن مشكلتي كانت في التطبيق، وهذا مع الأسف ما عرفته ... ولكن متأخراً ... فالإيمان بالقدر مع العمل بالإسباب شئ، والتواكل دون العمل بالأسباب شئ أخر ...

فذي القرنين الذي مكَّن الله له في الأرض وأتاه من كل شئ سببا، لم يكتف بذلك، بل أنه زاد بإن "أتبع سببا"، حتى وهو يبلغ مغرب الشمس ويجدها تغرب في عين حمئه، ويقال له "يا ذا القرنين إما أن تعذب، وإما أن تتخذ فيهم حسنا"، ومع كل هذه القدرة، وهؤلاء الجند والقوم، الذين ينتظرون منه إشارة، إلا أنه

إكتفى بإن قال "أما من ظلم فسوف نعذبه عذابا، ثم يُردُ إلى ربه فيعذبه عذاباً نُكرا، وأما من أمن وعمل صالحاً فله جزاءً الحسنى، وسنقول له من أمرنا يُسرا"، وزاد على ذلك بإن أيضاً ... "أتبع سببا"، وإنتهى ذكر ذي القرنين في سورة الكهف بإن "أتبع سببا" في ثلاث مواقع، وزاد عليها بإن قال "مامكني فيه ربي خير ... الآية" ...

والدي العزيز ...

قد أكون خرجت عن الموضوع قليلاً، ولكنها مشاعري المختلطة تجاهك، ما بين هيبة ورهبة، محبة ورغبة ... هو ذاك القلم الذي إدعيت كاذباً بإني أمسكته، مع انه في الحقيقة هو الذي أمسكني، ذاك القلم الذي قد تظن أني دفعته للكتابة، ولكنه وللأمانة هو الذي سحبني؛ وما أسواء سحب القلم لصاحبه بغير شعور، وما أقبح أن تكون عبداً لقلم يسيرك كيف يشاء، ويقودك إلى حيث يريد، فهو كالحصان البري الذي لم يتعود على فارس، وهو كشابة لعوب ذات كيد عظيم تحتاج إلى ترويض، وأنَّى لي بصبر أيوب، وحكمة سليمان، وعدالة وحلم محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، لكبح جماحه، إلا أن تأتيني المعونة من لدن حكيم خبير، بعد سهم أطلقه بليل ...

والدي العزيز ...

لا يهم ترتيبي بين أخوتي ...

قد أكون أصغرهم ... أو ربما أوسطهم ... أو حتى كبيرهم الذي علمهم السحر!! ... أو ربما كنت وحيداً لديك، فأنا لا يهمني كل ذلك ... فكل همي أن تسمعني، وأن تلقي بإذنك إليّ كما عودتني دائماً على الرغم من أني لم أعودك على أن ألقي بصوتي إليك ...

كم مرة ومرة فتحت ذراعك لي لتحضنني، ولكني كنت أهرب منك بداعي أني أعرف مصلحتي، وكم مرة ومرة حاولت أن تمنعني من التهور؛ ولكن التهور راكبني من رأسي حتى أخمص قدميّ.

والدي العزيز ...

في أحد المرات ناديتني، وبعد أن جلست معك في مكتبك بالمنزل قلت لي بالنص: أذكر الله يا ولدي وكمل دراستك ... وإذا كان عندك مشكلة في جامعة الملك سعود ... ممكن تنقل للظهران

إلا أن هذا الرأي لم يرق لي، فأنا لم أكن راغباً في الدراسة أساساً، فرفضت هذا العرض جملة وتفصيلاً على الرغم من أنه مبدئياً قد يعجب بل يغري أي شاب بقبوله، إلا أنك ويا لحلمك عليّ لم تيأس من محاولات إقناعي ... إلى أن إقتنعت بوجهة نظرك شكلاً ولم أطبقها موضوعاً!! ...

وأتجهت إلى الظهران مع مصروف جيب منك، وفوقه دعاء منك ومن الوالدة أطال الله بقائها، إلا أني لم أكن على قدر المسئولية؛ فقد قضيت تلك الفترة من عمري متنقلاً، ولكن ليس بين

obeikandl.com

الرياض والظهران لزيارتك ووالدتي وبركما، ولكن مع الأسف كانت بين الظهران إلى ما بعد الجسر!! ...

خدعتني نفسي .. وضحك عليّ شبابي ... وغرني بالله الغَرور ...

سنة كاملة لم أكملها في الجامعة إلى أن عدت إليك أجر أذيال الخزي والعار، إلا أنه وإن كان هذا الواقع، فقد كنت لحظتها مكابراً، معتقداً أني على صح ... وأنت على خطأ ... كنت معتقداً بيني وبين نفسي أني أقرأ المستقبل ... وأنت تعيش في الماضي، بإني أتجه إلى القرن الحادي والعشرين ... وأنت تعود بي إلى عصور ما قبل التاريخ ...

لا تلمني يا أبي ... فقد كنت يافع الفكر ... غض التفكير ..

لا تلمني يا أبي ... إنه الجهل ... إنها قلة الخبرة ...

لا تلمني يا أبي ... أو لمني ... "فما لجرح ميت بإيلامُ" ...

ورجعت إليك ... بإنفٍ شامخ عليك، وعلى والدتي ... رَغِمَ ذاك الأنف الذي يشمخ عليكما في يوم وقبحه الله من أنف وقُبِّحَ حامله ...

رجعت إليك وكأني بك تريد مني على الأقل إعتذار ... أو قبلة على الرأس؛ ولكني كابرت ... لماذا؟! ... لا أدري ... أهو الشيطان

الذي أخذني إليه؟! ... أهو إحساسي بإني كبرت ويجب أن أثور على سلطتك؟! ... أم هو شعوري بإني بدأت أعتمد على نفسي وكان لزاماً عليّ بإن أقوم بحركة إنقلابية على صلاحياتك؟! ...

كم كنت كاذباً على نفسي إذ إعتقدت تلك الإعتقادات ...

كم كنت مخادعاً لشعوري إذ أمنت بتلك التفاهات ...

فمن أكون أنا حتى أثور عليك وعلى والدتي، من أكون أنا حتى أنقلب على حرصكما عليّ، من أكون حتى أضرب بتعاليم ديني الحائط، وبآيات ربي وأضعها على الرفوف ولا أعود إليها إلا في رمضان دون تدبر وعلم ... هذا إن عدت!! ...

والدي العزيز ...

دارت بيني وبينك مناقشات كثيرة حول عودتي للظهران، وحاولت معي، وأعطيتني فرصاً كثيرة للتفكير، ففكرت ... وقدرت ... ثم فكرت وقدرت ... ثم نظرت ... ثم عبست وبسرت ... فقلت إن هذا إلا "كلام مُغْبِرٌ" ... رأي قديم لا يقدم ولا يؤخر ... ثم وأخيراً .... توظفت ...

وليتني بعد أن توظفت عدت إليك شاكراً على نصائحك، بل أني كابرت وإزددت عناداً، وتفننت عقوقاً؛ فمن هَجرٍ بالأيام، إلى بُعدٍ بالليالي، ومن تَقصيرٍ بالزيارات، إلى تَعذُرٍ بالأشغال والوظائف،

حتى الإتصال ولو بالهاتف النقال لم أكلف نفسي فيه، لا عليك ولا على والدتي ...

والدي العزيز ...

لا أعـــــرف لماذا هذه السطور؟! ... ولماذا هذه الكلمـــــات المتشابكة؟! ... ولا أدري لما أنا مستمر في الكتابة حتى الأن؟! ... فـقـد حـاولت مـسك القلم، إلا أنه رفض كل المحـاولات مـفـضـلاً الإندفاع على هذا المداد ... الإستمرار في هذا العبث، وكأن هناك مغناطيس بينه وبين يدي أدى إلى تجاذب مع الورق، فلا أنا أستطيع تسييره بإنتظام، ولا أستطيع إيقافه عن الإنطلاق، وأنى لي بإيقاف جموحه، وتهدئة سرعته! ...

قد جمح ساحباً خلفه حروفي التي إنسابت من عقلي كشلالات مياه إندفعت من أحواضٍ مليئة بالمياة الراكدة وفُتِحتْ عن طريق طفل مراهق بلا وعي ولا تركيز، إنطلقت كما فوهة بركان خامد منذ آلاف السنين ثارت حممه فجأة في لحظة سقطت سهواً من صفحات الزمن ... حتى محاولاتي بترتيبها باءت بالفشل، وقدرتي على صفها تدعو للخجل!! ...

والدي العزيز ...

أكتب لك هذا الكلام بعد مضي حوالي ستة أشهر على أخر لقاء

لي بك، بعدما فُصِلتُ من عملي، وأعطيتني كلاماً جارحاً، خاصة لرجل قد تعدى الأربعين في مثل سني الأن، ولكني وعلى الرغم من مرور هذه السنون إلا أن عقلي يبدوا أنه لم يكبر معي، فقد عاملتك، وجافيتك، وصرخت في وجهك، وكأني لا أزال مراهقاً إبن ثمانية عشر سنة، وخرجت من البيت دون أن أحس بذرة ألم، أو شعور ندم إلا الأن فقط!! ... الأن بدأت أحس بالقهر على كل ما فعلته تجاهك، الأن ... ندمت وقت لا ينفع الندم، الأن ... تألمت وقت ما يكون الألم شعور تمخض من عدم، الأن ... بعدما قيل لي عن وفاتك قبل يومين ... لا أعرف ما الذي إنتابني، ولا أدري ماذا دهاني؟! ... فجأة وبلا مقدمات تذكرت أن لي أب، ولكن في الوقت الضائع!! ... تذكرت أن هناك شخص ينسب إسمي إلى أسمه عمري كله دون أن أحس به على الرغم من إحساسه فيني، ما استمرت دقات قلبه في النقر، الأن فقط ... بدأت دموعي تخالط حبري الأزرق لحتى أصبحت لا أعرف إن كنت أكتب لك هذه الحروف بدموعي؟! ... أم أني أبكي هذه الدموع بحروفي؟! ... هل أنا أبكيك أم أبكي على نفسي؟! ... أودعك ... أم أقتل وداعي؟! ... هل أرثيك ... أم أرثي فيك إنساناً إنتهى قبل أن يبدأ؟! ... إنتهى في وقت كان المفروض أن يعود ... عاد في وقت المفروض ألا يعود ... "آآه ... ما هذا الذي أكتبه؟! ... ما هذا الذي يسحبه قلمي من رأسي؟! ... أرجوك يا قلمي ... إن كنت ولابد كاتباً ... فرتب أفكاري على هذه السطور ولا تبعثرها كما تبعثر إناث

الأطفال عرائسها ... أرجوك توقف عن هذا العبث ... وهذا الحيص بيص ... أرجوك أرحمني وتوقف ... أرجوك يكفيني ما أنا به ... آآه يا الله كم أتمنى أن يقوم هذا القلم بقتل أحد ولو بالخطأ ... حتى يكفر عن نفسه بعتق رقبة ... ولتكن هذه الرقبة .... يدي!!" ...

والدي العزيز ...

ليس لي إلا أن أزور قبرك كل أسبوع لعل الله يرحمني، ولعلك تسامحني، وليس لي في هذه الدنيا إلا الدعاء لك، وأن أعوض ما فاتني من بر مع والدتي، أما أنت ... فقد أسعدني ما قلته عني بإنك حللتني ... حتى وأنا قاطعاً بك ... حتى وأنا عاقاً فيك كنت طيباً معي، ما أحلمك وأصبرك على إبنك ...

لن أنصح أحداً بالبر، وأدعي البطولة في ذلك، فالنصحية لا تأتي من شخص مثلي، قد مر بأسوأ تجربة ذكرت منها القليل، وأخفيت الكثير، وقديماً قيل ... "لا تنه عن فعل وتأتي مثله ... عار عليك إن فعلت عظيم" ...

ولكن ... كم من أب أو أم سيكونون في مثل حلمكما عليّ، وصبركما عليّ، وإشفاقكما عليّ ...

وكما قال الأمير/أحمد شوقي ... "دقات قلب المرء قائلة له ... إن الحياة دقائق وثواني"، فإلى متى غفلتي، وإلى متى عبثي، ومن

يضمن لي الحياة أكثر ... فهي ليست إلا "دقائق وثواني"، فالعوض بوالدتي الأن ...

أما أنت يا والدي، فأقول لك كلمة أخيرة، أتمنى أن تصلك وأنت في روضة من رياض الجنة ... ودوناً عن باقي الرجال...

"إن لم يكن بك عليّ غضبٌ .... فلا أبالي" ....

إبنك المحب كثيراً ... والمقصر أكثر ....

مساعد ...

أما أنتِ يا أمي ...

فاللحديث ... أو بتعبير أخر ...

فإن للحياة معكِ بقية ...

obeikandl.com

obeikandl.com

صانع الدمى

obeikandl.com

obeikandl.com

صانع الدمى

بعد أن خرج من اللقاء التلفزيوني في أحد البرامج الحوارية الشهيرة، بإحدى أشهر القنوات الفضائية العربية، في العاصمة اللبنانية بيروت، اتجه مباشرة إلى منطقة الـ"سوليدير" في وسط العاصمة حيث المقاهي تعج بالمكان، والناس لم تترك فراغاً على أرضية الممرات يكاد يبين من شدة الزحام - وذلك لسبب بسيط - حتى يمتع نفسه بنتيجة لقائة على الشاشة الفضية، وتوابع آرائه التي ألقاها عبر ذاك البرنامج...

جلس على إحدى الطاولات الدائرية في مقهى لا يهمه إسمه، أو شهرته، أو مستوى خدمته، فكل ما يهمه حينها الناس، وإلتفاتهم المتوقع حواليه، لهذا اختار مقهيً يقع تقريباً في منتصف الـ"سوليدير" حتى يكون بارزاً للرائح والغاد.

وما إن استوى على الكرسي، حتى أشار بيده اليمنى لنادلة بيروتية فائقة الجمال، وقد اختارها بعناية دوناً عن كل العاملين في المكان، والتي أتته بخطوات تبدو وكأنها ملاك يمشي على الأرض، أو طائر يطير بجناحيه، إلى أن وصلت إليه، وقد بدى وجهها وكأنه قطعة من القمر قد تهادت بغير حسبان من السماء في ليلة

الخامس عشر من الشهر تحديداً، أما أسنانها وهي تناوله كتيب قائمة الطلبات قد بدت من خلال ابتسامتها المشرقة، كقطع من البلور محفوفتين بحبات من الكرز قائلة بحبور: أهلين أستاذ ...

– (فبادلها – وهو يتناول منها كتيب قائمة الطلبات – ابتسامة إعجاب): أهلاً ...

– (وقالت وهي واقفة عن يمينه بقامتها المشوقة، وكأنها غُصنُ بانٍ تكاد تكسره نسمات الهواء التي زينت منطقة الـ"سوليدير" في تلك الليلة): ماذا تحب أن تشرب؟! ...

– (وخلع نظارته، ماسكاً إياها بأطراف أصابعه، بعد أن قرّبَ قائمة الطلبات من عينيه أكثر وقال): ماهو أفضل مشروب لديكم؟! ...

– (قالت وهي ماسكة ورقة وقلم لكتابة الطلبات): كل شئ عندنا على ذوقك ..

وإلتفت إليها متأملاً بجمالها، مردداً بينه وبين نفسه "ألم تعرفني؟! ... أو ربما أنها لم تشاهد الحلقة هذا اليوم ... أو ربما عرفتني ولكن خجلها يمنعها من أن تبوح بشيء" ...

– (واستغربت من تدقيقه في وجهها، وأنزلت حاجبيها إلى أسفل، ثم تداركت نفسها بابتسامة مجاملة): عفواً أستاذ .. هل تفكر بشيء؟! ...

– (فتدارك نفسه قائلاً): لا ... لا ... أعطني كوباً من الكابوتشينو ...

– مع نكهات معينة أستاذ؟! ...

– (وقال محاولاً تطويل الحديث معها): وماهي النكهات الموجودة عندكم؟! ..

– قرفه ... فانيلا ... (ثم عددت النكهات الموجودة) ..

– لا ... كابوتشينو عادي ...

– (فقالت وهي تسجل الطلب): هل تريد شيئاً آخر؟! ...

– مثل ماذا؟...

– كيك ... جاتوه ... كرواسون ... (ثم سكتت، وسكت هو أيضاً دون أن يرد، فقد عاد لتأملاته فيها وبجمالها، وقوامها، وما إن نزلت عيناه إلى أسفل العنق، حتى قالت باندهاش): أستاذ ... هل تريد شيئاً آخر؟! ...

– (وعاد وانتبه لنفسه من جديد): لديكم شيء آخر غير الكيك والجاتوه والكرواسون؟! ...

– (وأطلقت زفرة بالكاد حاولت أن تخفيها، مع ابتسامة خرجت بالقوة من شفتيها): كل شيء عندك في القائمة ... هل تريد شيئًا آخر؟! ...

- (وأحس في قرارة نفسه أنه لا داعي لإكمال سخافاته، خاصة وأن وضعه الحالي ككاتب معروف، بعد كتابه الأخير الذي آثار جدلاً لم يكن يتوقعه، ومفكر شهير يظهر عبر وسائل الإعلام المختلفة من إذاعة، وتلفزيون، وصحافة، يحتم عليه أن يكون أكثر عقلانية من هذه التصرفات الصبيانية، فقال): لا .... شكراً ...

- (وابتسمت في وجهه ابتسامة باردة بعد أن أعطاها قائمة الطلبات): شرفتنا ...

- (وقبل أن تبتعد بأربع خطوات ناداها): لو سمحتي ...

- (والتفتت إليه زارعة على وجهها ابتسامة كادت ألا تظهر لولا طبيعة عملها التي تفرض عليها مجاملة كل من هب ودب): نعم ...

- ممكن طلب؟! ...

- على راسي ..

- ماء ... كوب ماء ...

- تكرم ....

واتجهت ثانية داخل المقهى، تلعن بينها وبين نفسها الوضع الذي يجبرها على مجاملة هكذا أشكال، وما إن دخلت إلى زملائها لتحضير الطلب، حتى انتبه لها أحد العاملين، وهي تمتم بينها وبين

نفسها بكلمات غير مفهومة، وإن ظهر منها أنها غاضبة، مشمئزة من شيء ما، فقال لها الزميل: كريستين!! ... ماذا بكِ؟! ...

– لا شيء يهم ... (ثم تابعت) ... لكن هناك بعض الزبائن يعتقدون أن أي ابتسامة نلقيها لهم يعني أننا همنا بهم عشقاً وشوقاً ... جاهلين أن الموضوع ليس إلا مجاملة لا أكثر ...

– (فابتسم زميلها): لماذا؟! ...

فحكت له عما جرى بينها وبين ذاك الرجل من عبارات ونظرات لم تكن في محلها، فقال لها الزميل: عادي ... لم أر شيئاً مريباً في تصرفاته ... فكما ابتسمتِ له إبتسامة مجاملة ... فهو أيضاً بادلك الشعور نفسه... أي شعور المجاملة أعني ...

– لا ... (قالت وهي مصرة على رأيها) ... لا ... لم تكن مجاملة بقدر ما كانت استظراف ليس في محله ... (وتابعت وهي واضعة مرفقيها على طاولة إعداد الطلبات) ... عموماً ... الموضوع لا يهمني كثيراً ... فهذه طبيعة عملنا ... يجب أن نتحمل مثل هذه العينات ....

– (فقال لها زميلها، وهو يهم بالاتجاه لتنزيل الطلبات لزبون آخر): على رأيك ... الإنسان "لما يعيش بدو يشوف" ...

أما صاحبنا، فقد ضاع وقته بتلقي الاتصالات من أقاربه وأصدقائه، المهنئين له على نجاح اللقاء التلفزيوني، الذي يعد أول

لقاء له على قناة فضائية غير سعودية في حياته على الرغم من أنه قارب الأربعين من العمر، فسنوات عمره التي قضاها عضواً في الحركات الإسلامية، متنقلاً بسببها في خوض المعارك بين الشيشان، وأفغانستان بالإضافة إلى نشاطاته الفكرية والدعوية في بلده الأم (لسعودية)، كل هذه الأشياء قد أخرت من إنتاجه الأدبي، وعطلت نجاحه وشهرته على المستوى الإعلامي، بالإضافة إلى ما سبق فإنه لم يكن يفكر أبداً في أن تسير حياته إلى ما سارت عليه الآن، إلا أن تغير فكره في السنوات الأخيرة، مع احتكاكه بمجموعة من الكتاب والصحفيين، ومشاهير الفكر والأدب، قد قتلت فيه كل شيء يذكره بالماضي، فاتحاً لنفسه بوابة أخرى للنجاح، وطريقاً مختلفاً للشهرة، ودرباً مغايراً للمجد الذي اختاره لنفسه ....

واتصل عليه من ضمن المتصلين، رئيس تحرير الجريدة التي يعمل بها، فرد عليه سريعاً: هلا أبو ناصر (وهي كنية رئيس التحرير) ...

- هلا مشعل ... هاه ... كيف أمورك؟! ...

- تمام والحمدلله ...

- كيف بيروت وأهل بيروت؟! ...

- يسلمون عليك الله يحفظك ...

- إن شاء الله مرتاح فيها؟! ...

- لا ينقصها إلا وجودك طال عمرك ..

- (فسأله الرئيس مازحاً): هاه ... هي أم مغارات تورابورا؟! ...

- أقول الله يستر على قندهار وأهلها ... الفرق واضح الله يسلمك ... (ثم استدرك قائلاً) ... كيف رأيت المقابلة يا طويل العمر ...

- ما شاء الله عليك .. رائعة جداً ... وإن كان لي بعض الملاحظات ...

- مثل ماذا؟ ..

- يعني ... أسلوبك في الكلام عن الحركات الإسلامية كان فيه مبالغة بعض الشيء ...

- مبالغة؟!! ... أليس هذا رأيك فيهم منذ زمن ... وأنا لم أقل إلا ما كنت تقوله لي ...

- لا ... لا ... لم أكن أقصد ذلك يا مشعل ... وليس هذا رأيي أبداً ... حتى وإن كان هذا رأيي أو رأيك ... كنت أتمنى أن تكون أكثر اتزاناً ... فأنت ما زلت في بداية الطريق ... ولا نريد أن يزيد عليك الهجوم ... فأنت تعلم أننا في مجتمع عاطفي ... قد يتعاطف

معك فيما يقال عنك ... ولكنه بالتأكيد لن ينسى لك أي شيء قلته على لسانك ...

- لم أفهم ...

- أقصد أنه كان لابد أن "تشد وترخي" نوعاً ما ... وأعتقد أني ذكرت لك سابقاً أن ترديد اسمك عبر منتديات الإنترنت ... كان كافياً لك في هذه المرحلة ...

ووضعت النادلة كوب الكابوتشينو على الطاولة، وبعد أن شكرها بنظرة من عينيه، قال لرئيس التحرير: يا ليت توضح لي أكثر طال عمرك ...

- عموماً ... أنا فقط أحببت أتصل وأسلم عليك وأبارك لك نجاح اللقاء ... أما بالنسبة للتفاصيل الثانية يمكن نتفاهم فيها في وقت ثانٍ إن شاء الله ... أنا الآن عندي ارتباطات معينة وأستأذنك ... توصيني بشيءٍ ...

- شكراً ...

وما إن وضع هاتفه النقال على الطاولة، وقبل أن يهم بالتأمل في الناس، حتى رن هاتفه النقال، وإذ برقم غريب من السعودية، فتساءل بينه وبين نفسه ... "من يكون ياترى؟! ... أهو معجب أم معجبة؟!" ... وإن بدا هذا الخاطر مضحكاً بعض الشيء، إلا أنه لم

يكن مستغرباً خاصة بعد انتشار رقم جواله في منتديات الإنترنت لـ"مناصحته" - حسبما ردد بعض كتاب تلك المنتديات - فضغط على زر رد المكالمات: هلا ...

- السلام على من اتبع الهدى ....

- (فأحس بكبت في صدره، وتنهد في ضيق، فهذه التحية لا يرددها إلا أحد المناصحين، الذين يعتبرونه أحد المارقين عن الدين، والخارجين عنه، فحاول أن يكون أكثر هدوءاً حين قال): وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ...

- الأستاذ مشعل؟! ...

- معك أخوي ...

- ألم تعرفني؟! ...

- لا والله ... اعذرني ..

- (وقال الصوت بنبرة عتاب لا تخلو من الحدة): ألهذا الحد أنساك الإعلام والشهرة أصدقاءك القدماء؟! ... إلى هذا الحد غرتك الدنيا وزخرفها ونسيت رفقاء الشباب ...

- من معي أخوي؟! ...

- معك صالح ...

obeikandi.com

- صالح من؟! ...

- صالح عبدالعزيز .... أبو مجاهد ...

- (فقال بصوت بارد، وقد تذكره): هلا ...هلا ... (فصالح هذا لم يكن إلا أحد الرفقاء القدماء، إبان فترة أفغانستان والشيشان، والدعوة والإصلاح في السعودية) ..

- (فقال صالح بصوت قد بلغت به الحدة أعلى من السابق): بحق ما كان بيني وبينك من رفقة ... أقول لك ... اتقِ الله ...

- جزاك الله خير ...

- اتق الله فيما تكتب .... اتق الله فيما تقول ... اتق الله في حركاتك ... في سكاناتك ... اتق الله في أنفاسك ... ألا تعلم أنك محاسب على كل شيء تقوله وتكتبه ... ألاتعلم أنك ستموت وسيبقي الدهر ما كتبت يداك ...

- جزاك الله خيراً ...

- ألا تعلم أن هناك جنة وناراً وحساباً وعقاباً ...

- جزاك الله خيراً ...

- اللهم يا مالك الملك .... إن كان في سابق علمك هداية مشعل فاهده وقر أعين أهله والمسلمين به ... وإن كنت تعلم أنه

لا رجاء في هذا المشعل فعجل به كما عجلت بقوم عاد وثمود ... اللهم ..

- (وهنا ضاق مشعل ذرعاً بعد سماع هذا الدعاء القاسي فقاطعه قائلاً): يا أبا مجاهد استغفر ربك يا أخي ... أنت قرأت الكتاب؟! ....

- لا حاجة لي في قراءة هذه التفاهات ... (ثم تابع قائلاً) ... اللهم يا مثبت القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك ... يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك ...

- (فتنهد في ضيق): لا حول ولا قوة إلا بالله .....

- اللهم ثبتنا على دينك الثابت ... اللهم ثبتنا على دينك الثابت ...

وأقفل صالح الخط بعدما كرر عليه نفس التحية التي بدأ بها حديثه ...

وأقفل مشعل الخط متبرماً بينه وبين نفسه، وألقى برأسه إلى الكرسي، وأخرج من صدره تنهيدة قرف بعد هذا الاتصال، ثم مد يده إلى كوب الكابوتشينو، وارتشف منه رشفة، ثم وضعه ثانية على الطاولة، وبدأ في تأمل ساحة الـ"سوليدير"، والمارون خلالها دون أن يركز في شيء معين، وكان أثناء جلوسه في المقهى، يأتيه اتصال ما

بين الفينة والفينة، من مهنئين، وآخرين مناصحين، ناس يعرفهم، وناس لا سابق معرفة له بهم، وقد ضاق ذرعاً بالمناصحين خاصة، فهو في لحظات نشوة، لا يريد فيها أن يسمع شيئاً يكدر مزاجه من نصح أو خلافه، فكان بكل برود يرى الهاتف، وهو يرن عليه دون أن يرد إذا كان الاتصال من رقم غريب، وإن كان بذلك قد أزاح نصف الهم، إلا أن نصفه الآخر لم يستطع الفكاك منه، فقد أشغله هاتفه بكثرة رنين الرسائل، وإن كان منها بعض كلمات الإطراء، إلا أن أغلبها كانت من مناصحين، إما بالدعاء له بالهداية، أو الدعاء عليه بجهنم وبئس المصير ...

وكان في تلك اللحظات ماسكاً هاتفه النقال، فإذا أتته رسالة إطراء انتفخت أوداجه زهواً وفرحاً، وإذا أتته رسالة مناصحة كان يبتسم بسخرية من هذه العقليات المتخلفة ... "التي لن تتطور البلاد بوجودهم" ... وهكذا قضى أغلب وقته، إلى أن أتاه أحد الشباب السعودي السائح، هامساً له من الخلف بابتسامة أدب: أستاذ مشعل؟! ...

- (فالتفت إليه وهو ماسك جواله): هلا ...

- (فأشار الشاب إليه بسبابته اليمنى): الأستاذ مشعل الكاتب المعروف بجريدة العالم الكبير؟! ..

- هلا ... معك أخوي ...

– (فصافحه الشاب قائلاً): والله شرف كبير لي يا أستاذ مشعل إني ألتقي فيك بصراحة ...

– (فقام مشعل ماداً يده إليه بالمصافحة، بعد أن وضع جواله على الطاولة): بالعكس ... الشرف لي أخوي ...

– بصراحة ... كتابك الأخير كان قمة في الروعة ... سواء من ناحية الأسلوب أو الفكرة .... بشكل عام ... يعني ... نفتخر فيك بصراحة ... يكفي هذه الضجة التي عملها الكتاب ...

– (وقال وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة): الله يسلمك ... ولو أن القصد ما كان إحداث ضجة بقدر ماكان البحث عن فكرة ... وعن حل لمشاكلنا ...

– ما أستغرب منه حقيقة هذه الضجة الكبيرة ... والهجوم الشديد عليك دون أسباب مقنعة ...

– والله هذا مجتمعنا ... ويجب أن نحاول ونكافح لتغيير بعض المسلمات ... (ثم تنهد قائلاً) ... لكن الأمل فيكم أنتم بصراحة يا من قرأتم الرواية حتى توضحوا لمن لم يقرأها الأفكار التي كنت أقصدها ...

– والله أبشر ... أنا الآن قرأت منها حوالي ٦ صفحات ... ولكني أنوي أكملها ... (ثم تابع قائلاً) ... وبصراحة ... لا أعرف

لماذا غير موجودة عندنا؟! ... خاصة أني سمعت من ناس كثير أنها رائعة ... وقرأت عنها في الصحف ... وعبر الإنترنت ... ولم أجد فيها من يذمها إلا فئة معينة من المجتمع ... (ثم تابع ساخراً) ... وهي فئة بيني وبينك "جابتنا ورا" ... (ثم استدرك قائلاً) ... عموماً آسف على إزعاجك ... ولكني أردت أن أسلم عليك فقط وأشكرك على أفكارك النيرة ... وكتابك الأخير تحديداً ... (ثم مد يده للمصافحة ثانية، وقال وهو يشير إلى طاولة في نهاية المقهى) ... عموماً نحن هناك أنا وأصدقائي ... ياليت تتفضل معنا

- تسلم يالغالي ... شكراً ... ياليت أنتم تتفضلوا معي ... حق وواجب أني أضيفكم؟!

- الله يسلمك .... توصيني بشيء الله يحفظك؟! ...

- شكراً أخوي ...

وقفل عائداً إلى حيث مكانه، تاركاً مشعل وحيداً على الطاولة، وإحساس الزهو بدأ يتسلل إليه ثانية، بعد هذا اللقاء المفعم بالإعجاب، بينما جواله بدأت الاتصالات الغريبة إليه تقل، والرسائل تخف، وأمسك جواله متأملاً في الرسائل المرسلة إليه، فمن دعوى له بالهداية ... إلى دعوة عليه بالانكسار والخذلان، واختلفت الرسائل، والتي كانت كل واحدة منها تدل على عقلية مرسلها، حتى أن بعضها قد وصل إلى الأبناء والبنات والعرض ... وهناك رسائل

إعجاب قد جعلته "يحلق" حول الكواكب، وكأنه مفكر زمانه الذي لا يجود الزمان بمثله، لا قبله ولا بعده!! ...

ولم يخلُ الأمر من معجبين ومعجبات، يأتون على فترات، وإن لم يكونوا بتلك الكثرة، إلا أنها لفتت نظر العاملين في المقهى، حتى إن أحدهم قد نبه كريستين إلى ذلك بعدما انتشر خبرها وضيقها منه، قائلاً لها بسخرية لاذعة: صاحبك شكله إنسان مهم!!

- (فالتفتت إليه، وهي حاملة صينية عليها ثلاث فناجين من المشروبات الساخنة باستغراب): أي صاحب؟! ...

- (فرفع حاجبيه وقال بسخرية أشد من سابقتها): وأنتِ عندك كم صاحب؟! ...

- (فنظرت إليه باستنكار متجاهلة ما يعني): ماذا تقصد؟! ...

- (فحاول أن يخفف من سخريته، متصنعاً الجدية، حتى لا يتكهرب الجو أكثر معها): أقصد ذاك الرجل ... (وأشار إلى مشعل بإماءة من رأسه) ...

- (وهزت كتفيها بلا مبالاة): وما علاقتي بذلك؟! ...

- (وعاد إلى سخريته محاولاً استفزازها): يعني .... "سلكي" أمورك معه ...

– (فقطبت حاجبيها باستنكار): شكلك فايق ورايق ... (وهمت بتوصيل الطلب قائلة) ... عن إذنك ...

وبعد أن عادت، ناداها صاحب المقهى، والذي يكون عادة موجوداً في مثل هذا الوقت، خاصة في الصيف، ليشرف على المحل بنفسه، وقد أقنعها بأن تلقي بالاً إليه، وتعطيه مزيداً من الاهتمام، دون تقديم أي تنازلات أخرى من أي نوع ... "يعني مجرد مجاملة لا أكثر" ... كما قال لها المدير حرفياً ... "خاصة أنه إذا أحس بأهميته في هذا المكان ستزداد زيارته إليه ... وبالتالي يكثر المعجبون حوله ... وتكون هذه أفضل دعاية للمقهى ... ومن يدري ... يمكن مع الوقت يشتهر مقهانا بسبب هذا الكاتب كما اشتهر مقهى الفيشاوي بسبب نجيب محفوظ" ....

– (فردت كريستين باستنكار): نجيب محفوظ؟!! ... (وتابعت قائلة) ... لا أعتقد أن هذه الأشكال تكوِّن قطرة في بحر نجيب محفوظ ...

– (فاستغرب مديرها من أسلوبها في الرد، ومنافحتها عن نجيب محفوظ قائلاً): وهل قرأتِ لنجيب محفوظ حتى تقولي كلاماً كهذا؟!!! ...

– وقالت: – وقد أحست بخجل حاولت عدم إظهاره: – لا .... ولكن حسب ما أسمع أنه أفضل روائي عربي ...

– (فهز رأسه بهدوء قائلاً): همم ... عموماً ... إفعلي ما قلته لك لا أكثر ... جامليه فحسب ..

وذهبت إليه بعد أن أخذت كافة المعلومات عنه، أنه كاتب سعودي ويُدعى مشعل، وله رواية حققت ضجة على المستوى الإعلامي اسمها "بوابة الشيطان" ...

واقتربت منه تمشي على استحياء، حاضنة قائمة الطلبات بين ساعديها، ضامة ساقيها بمحاذاة بعضهما إلى حد الالتصاق، مبدية الاحترام، ومظهرة التبجيل، وذلك "حسب التعليمات" التي أخذتها من مديرها!!!، وما إن اقتربت إليه إلى أقرب نقطة من الممكن أن تصل إليه، في وضع كهذا، ومكان مثل هذا المكان، قالت له بأدب: أستاذ مشعل؟!! ...

– (وما إن سمع صوتها العذب وهو يكلم بالجوال، واضعه على أذنه اليسرى، وبيده اليمنى كوب الكابوتشينو، حتى التفت إليها سريعاً، وكأنه لم يصدق لحظتها، أن التي تناديه هي تلك النادلة فائقة الجمال، ولكن لسوء حظه، ومن شدة عجلته، فقد ارتطمت يده التي يمسك فيها بكوب الكابوتشينو بخصرها القريب جداً منه، فوقع الكأس أرضاً، وتكسر بعد أن اندلق نصفه على ملابس النادلة، ونصفه الآخر على الأرض ... فابتعدت قليلاً من أثر المفاجأة لا أكثر، فالكوب لم يكن ساخناً لدرجة أن تحس بحرارته

لبقائه مدة طويلة دون أن يُشربّ كله، أما هو .... فقد أحس بإحراج للحظة بسيطة، ثم تمالك نفسه ثانية قائلاً): آسف ...

– (وقالت وهي تتحسس المنطقة التي أمتلأت ببقايا الكابوتشينو): أنا الآسفة ... (وابتسمت بخجل مصطنع) ... يبدو أني فاجأتك ....

– (أما هو فقد قال لصاحبه على الهاتف): اسمع ... أنا الآن مشغول ... أكلمك في وقت آخر ... (وأقفل السماعة، ثم أخذ منديلاً من العلبة الموضوعة على الطاولة، وكاد أن يمسح الجزء المندلق عليه الكابوتشينو بنفسه، ولكنه تدارك وضعه، وأحس أن هذا التصرف غير لائق في مكان عام كهذا، فأعطاها المنديل، وأخذته شاكرة، ثم قالت): بعد إذنك ...

وذهبت إلى الداخل لغسل الجزء المتأثر بالماء والصابون ....

وبعد أن أنهت مهمتها، عادت إليه، وبيدها كوب آخر من الكابوتشينو، قائلة له وهي زارعة على وجهها ابتسامة خفيفة: هذا على حسابي ...

– (فابتسم قائلاً): لماذا؟! ...

– تعويضاً عن السابق .....

– لا ... لم يكن هناك لزوم لهذا ... (ووضع يده على جيبه وهمَّ بإخراج قيمة الكابوتشينو) ...

– (فسألته بهدوء): ماذا تفعل؟! ...

– سأدفع قيمة الكوب ...

– (ونظرت إليه بعتب تمنى لو كان يُعاتب بمثل هذه النظرات دائماً): ولو؟!!! ... "أزعل منك"!!!

– لا ... ليس هذا ما قصدت ... ولكن ....

– (فقاطعته قائلة): أرجوك ... اقبلها مني هدية ... واعتبر المحل محلك يا سيدي ... عموماً .. هذا لا يهم ... أنا فقط أحب أن أتأكد إذا كنت مشعل الذي في بالي!!! ...

– (وبدأ الحبور ينفخ أكتافه ثانية، حين فهم ما تعني محاولاً إظهار عكس ذلك): ومن هو الذي في بالك؟!! ...

– الكاتب المعروف ...

– (فهز رأسه مشبكاً بين أصابعه، واضعاً إبهامه الأيمن على راحة يده اليسرى، وشعور العُجُبْ يكاد ينطق من عينيه): نعم ... هو أنا ...

– تشرفنا ... بصراحة لا أستطيع أن أخفي إعجابي بكتاباتك ومقالاتك ... وبالذات كتابك الأخير "بوابة الشيطان" ... فقد أحدث ضجة كبيرة لا يمكن أن تتخيلها ...

– أشكرك ... (وقال محاولاً تمديد الكلام معها) .... وما الذي أعجبك به أكثر ... ورجاء أتمنى أن يكون نقدك هادفاً لأتدارك الأخطاء التي حصلت ...

– كل شيء فيه كان رائعاً ... الأسلوب ... الوصف ... الشخصيات ...

– يعني معقول لا يوجد به أي خطأ؟!

– طبعاً لا ... أكيد هناك بعض الملاحظات ولكنها لا تضر العمل ..

– مثل ماذا؟! ...

– (وهنا أُسقِطَ في يدها، فهي لم تقرأ هذه الرواية، بل لم تقرأ أي شيء من كتابات غيره، فضلاً عن كتاباته، والأدهى أنها عندما رأته لأول مرة لم تعرف من يكون أساساً، فكل الموضوع من بدايته إلى نهايته، تنفيذ لتعليمات مديرها بمجاملته، بل إن ثقافتها لا تتجاوز متابعة أخبار فنانيها المفضلين عن طريق المجلات والإذاعات والتلفزيون، بالإضافة إلى اشتراكها بمواقع الإنترنت التي تخص فنانيها المفضلين، حتى نجيب محفوظ الذي ذكرت اسمه قبل قليل، لم تعرفه إلا من خلال الأفلام المصرية القديمة، حين يشار إليه كمؤلف للفيلم، وما ينطبق عليه ينطبق على غيره من المؤلفين

الآخرين أمثال إحسان عبدالقدوس، وتوفيق الحكيم، ويوسف إدريس وغيرهم ... إلا أنها تداركت نفسها بسرعة بديهة تحسد عليها بأن قالت): مهما بلغت قراءتي ... فأنا لست في مقام أن أقيم كاتباً كبيراً مثلك يا أستاذ مشعل ... (ثم تابعت قائلة - بابتسامة مجاملة -): بعد إذنك ... سأتابع أعمالي ... تأمرني بشيء ...

- لا.. شكراً ...

- على العموم ... خذ راحتك ... فهذا شرف كبير لنا أن تزور مقهانا ... وأتمنى أن تعتبر المحل محلك ...

- الشرف لي ... شكراً ...

وقفلت عائدة إلى مكانها ....

❄ ❄ ❄

وفي صباح الغد، لملم مشعل حاجياته، استعداداً للعودة إلى الرياض، فالفترة التي كان لزاماً عليه أن يقضيها في بيروت لإجراء هذه المقابلة التلفزيونية انتهت، وهي مدة تكفلت بها القناة لبقائه مدة ثلاثة أيام وليلتين، يوم الوصول، ويوم اللقاء، ويوم المغادرة ...

وفي الطائرة، وبعد أن وضع حقيبته بالأدراج المصفوفة في سقفها، جلس في المقعد المخصص له بالدرجة الأولى، وصادف أن كان بجانبه فتاة، يبدو من هيئتها أنها سعودية، واضعة عباءتها على

أكتافها، وطرحتها حول عنقها، مسدلة شعرها على نحرها، وبدأ يسترق النظر إليها، وبدا له أنها في نهاية العشرينيات من العمر ... لم يستطع تمييز ملامحها تماماً، وإن كانت بدت له من خلال التفاتاته السريعة، ونظراته الخاطفة بأنها لا تخلو من جمال، وقد أحس أنه يجب عليه أن يكون أكثر اتزاناً، فاستقر بناظريه إلى جريدة أمامه، يقلب فيها كيفما اتفق ...

وبعد أن بلغت الطائرة عنان السماء، أتاه أحد ملاحي الطائرة قائلاً بابتسامة احترام: أستاذ مشعل؟! ...

- (والتفت إليه): هلا ...

- والله شرف لنا أن تكون معنا في هذه الرحلة ...

- الشرف لي أخوي ...

وكرر الملاح الكلام نفسه الذي قاله من سبقه ... "كتابك رائع" ... و "يكفي الضجة التي أحدثها" ... و "مشكلتنا في هؤلاء المتخلفين الذين يمنعون كل شيء" ... إلى أن وصل بهم الحوار إلى كلمة قالها الملاح لمشعل: بحثت عنه في السعودية ولم أجده حتى الآن!! ... حتى في بيروت وجدته قد نفذ ... لكني أخيراً تصفحته عند أحد أصدقائي ... ووعدني أنه سيعطيني إياه في حال الانتهاء منه ...

– فابتسم قائلاً: لعله يعجبك إن شاء الله ..

– أكيد سيعجبني ... يكفي أنه أصبح حديث المنتديات والإعلام ... (ثم استطرد)... بعد إذنك ... وذهب الملاح لإكمال بعض المهام الخاصة به ...

وبعد دقائق من ذهاب الملاح، سمع صوتاً بجانبه يردد:عفواً .... عفواً ..

– (والتفت إلى مصدر الصوت بجانبه، وإذ بها الفتاة العشرينية، وما إن لمح وجهها الدائري، وملامحها الفاتنة، حتى تبين له أن القمر قد نزل من عليائه وجلس بجانبه قبل أن يعود إلى مستقره حتى حين، حتى أنه تساءل بينه وبين نفسه .... "لماذا كلما أرى فتاة تعجبني؟! ... هل لأنهن جميلات فعلاً؟! ... أم أن الفترة التي قضيتها في غياهب قندهار، ومجاهل الشيشان كان لها دور في ذلك؟! ... حيث لم يكن مسموحاً لي برؤية مثل هذه المناظر" ... فأجابها قائلاً): هلا ...

– الأستاذ مشعل؟! ...

– هلا ..

وأعادت الإسطوانة نفسها للتكرار منذ نهاية لقائه على الشاشة الفضية وحتى هذه اللحظة، إلا أن الفرق هذه المرة، أن صوتها في

أذنيه كزقزقة العصافير، وكلامها يتحدى أنغام تغريد الكناري، وجمال ألفاظها يتجاوز في رقته عذوبة خرير المياه، وطبعاً كعادة بعض من سبقها، مدّحتْ فيه، وفي كتابه، وفي فكره النير، ورفعت به إلى عنان السماء، حتى تجاوز السحاب، إلى أن قالت: مشكلتنا مع بعض العينات أنهم لا يريدون منا أن نتكلم في شيء ... يخافون من كشف الواقع وتعريته ... ولكن ما الحل في رأيك؟! ...

– والله لا حل لدي الآن ... لكن الأمل بك وبأمثالك من الفتيات والفتيان أصحاب الفكر الحر بأن يوضحوا لهذه العينات الهدف والفكر الذي نريد أن نوصله في كتاباتنا لكي نتقدم خطوة إلى الأمام ...

وبعد ذلك، أخرجت نسخة من كتابه كانت في حقيبتها قائلة له: هذا كتابك اشتريته أمس من مكتبة في بيروت ... يا ليت توقع لي عليه ...

وأخذ الكتاب، وفتح أول صفحة فيه، وكتب بها إهداء، ثم وقع اسمه وتاريخ اليوم، وكلمتها ترن في رأسه ... "اشتريته أمس من مكتبة في بيروت!!!" ... وأعاد لها الكتاب، وهو يفكر بينه وبين نفسه ... "إذن عن ماذا تتحدث هذه الفتاة؟! ... وعن أي أسلوب تتكلم؟! ... وماهو الشيء الذي أعجبها في كتاب اشترته بالأمس؟! ... وهل يُعقل أن تكون قرأت وأنهت وفهمت كتاب تصل صفحاته

إلى ٣٤٠ صفحة في ليلة واحدة؟!!" ... وبدأ شعور الإحباط يساوره لأول مرة، خاصة عندما تذكر صديقه أبا مجاهد الذي نصحه، ودعا له، ودعا عليه، دون أن يقرأ كلمة واحدة منه، فهو ... "ليس بحاجة لقراءة هذه التفاهات" ... وتذكر ذاك الشاب الذي قابله بالأمس، وأشبعه مدحاً وردحاً، وهو لم يقرأ إلا ٦ صفحات فقط، ولم ينس ملاح الطائرة الذي طار به خارج المجرات لدرجة خُيل له أنه "عقاد" زمانه .... وفي النهاية ... "تصفحت الكتاب عند أحد أصدقائي وقد وعدني أنه في حالة الانتهاء منه سيعريني إياه!!" ... وكل ما سبق في كفة، وهذه التي اشترته بالأمس في كفة ثانية ... "ما الذي يجري؟! ... هل كتابي ناجح فعلاً ويستحق هذه الضجة؟! ... أم أن الضجة هي التي نفعت الكتاب؟!!!" ...

وبعد أن وصلت الطائرة، مشى مشعل عبر الممر الأنبوبي الموصل بين الطائرة والمطار لصالة القدوم للرحلات الخارجية، ساحباً حقيبته الوحيدة بيده اليمنى، محاولاً الا يلتفت لأحد، يختلس النظرات ما بين الفينة والفينة إلى من حوله محاولاً فهم ما يدور بخواطرهم ناحيته وناحية كتابه الذي حقق ضجة دون أن يرى حتى الآن شخصاً واحداً قرأه ونقده سواء بالسلب أو الإيجاب، وبالقدر نفسه الذي كانت تأتيه ابتسامات إعجاب أحياناً - أثناء مشيه - من البعض، كانت تأتيه نظرات استنكار من البعض الآخر،

وبقدر ما كانت هذه الابتسامات التي يراها الآن ورأى مثلها سابقاً تسعده وترضي غروره، وبقدر ما كانت نظرات الاستكار التي يراها الآن ورأى مثلها سابقاً تصيبه بالكبت، والإحباط ... إلا أنها باتت لا تعنيه الآن ... "فأنا لا أعلم من يبتسم عن اقتناع ... ومن يبتسم تقليداً لغيره ... وما ينطبق على البسَّامين ينطبق على العابسين" ...

وحين جاء دوره لإنهاء إجراءات الدخول عند شباك الجوازات، قرأ العسكري المسؤول اسمه فقال: الأستاذ مشعل الكاتب ...

- (فابتسم بقرف وكاد أن يقول "نعم أنا الأستاذ زفت"، إلا أنه تمالك نفسه قائلاً): نعم ..

- فنظر إليه شزراً بعد أن أعطاه الجواز منهياً كافة الإجراءات الرسمية: اتقِ الله ...

- فتنهد قائلاً: جزاك الله خيراً ...

فتدخل زميل العسكري قائلاً: يا أخي انتم أتقوا الله في العالم ... كل ما ألف أحد كتاباً لا يعجبكم أطلقتوا عليه الألقاب جزافاً ... علماني ... زنديق ... ليبرالي ...

- فرد العسكري الأول: يا أخي أنا لم أكلمك ... أنا كلمته هو ... وأعتقد أن له لساناً يرد به ولم يفوضك محامياً عنه ... (ثم استدرك قائلاً) ... ثم أنت نفسك قبل ساعة ونحن نتناقش في

الموضوع نفسه قلت إنك لم تقرأ الكتاب ... فكيف تتهمني بأني ألقي التهم جزافاً ...

- (فرد عليه صاحبه): أنت أيضاً لم تقرأ الكتاب ... فعلى أي أساس حكمت عليه هذا الحكم؟! ...

- لا حاجة لي في قراءة هذه السخافات ... يكفي أن الشيخ عبدالعزيز وهو شيخ معروف حذرنا منه ... لكن أنت على أي أساس تستند؟! ...

- على أساس أن هناك كتَّاباً صحفيين معروفين مدحوا الكتاب ... يكفي أن رئيس تحرير جريدة العالم الكبير قدّم له ... وهذا كافٍ بالنسبة لي، حتى أعرف أن الكتاب لا يوجد به شيء ضد الدين ... وكل ما في الموضوع أنها رواية جريئة ... وأنتم تخشون أي شيء يكشفكم ...

- وهل الجرأة في ذم الدين والعادات والتقاليد؟! ...

- كيف عرفت ذلك وأنت لم تقرأ؟! ...

- وأنت كيف عرفت غير ذلك وأنت لم تقرأ؟! ..

ونظر إليهما مشعل في يأس، وأخذ جوازه، واتجه إلى بوابة المغادرة، وتركهما يتناقشان في كتاب لم يقرأه أحد فيهما!!!

❋ ❋ ❋

واستقل مشعل سيارة أحد الشباب السعوديين الذي يقومون بعملية التوصيل بسياراتهم الخاصة مقابل أجر مادي، وهم من يسمون حسب العرف بـ "الكدادين"، وما إن ركب معه، وبعد أن وضع حقيبته في الكرسي الخلفي، وبعد أن كان يعيش بين شعورين متناقضين، حبور ونشوة من جهة، ويأس وأسى من جهة أخرى، حتى بدأ شعور الحبور والنشوة يزول قليلاً، وحل بدلاً منه شعور غريب جعله يفكر ... "ماذا يحدث؟! ... ولماذا كل هذه المناقشات والمناوشات والابتسامات والعبوس من أناس لايعرفون عنه شيئاً إلا أنه ألف كتاباً؟! ... وليتهم قرؤوه!!" ... وبدأ يتأمل في وجه السائق الذي كان في منتصف العشرينيات من العمر ... صامت ... جامد ... لا تبدو على ملامحه أي تعابير من أي نوع، عيناه مركزتان في الطريق أمامه ... يداه ... متشبثتان بالمقود على الطريق السريع ... "يا هل ترى أنت من أي الطرفين؟! ... هل أنا في نظرك كاتب ملحد ... علماني ... زنديق ... مارق عن الدين ... أم أني مفكر ... متحرر ... صاحب أفكار نيرة؟!" ... وبعد أن بدأت تخف أمواج أفكاره المتلاطمة في مخيلته، وعند أحد إشارات المرور، أشار سائق أحد السيارات المنتظرة لإشارة مرور على يسار سيارتهم بأن يفتح النافذه، ففُتحتْ النافذة، وقال راكبها لسائق السيارة "الكداد": يا سيد ... ، قل للذي بجانبك أن يتقي الله ... وليعلم أن الله حسيبه ...

فقال مشعل بعد أن رمى عينيه إلى الأمام للكداد: لو سمحت اقفل النافذة!! ...

فأقفلها السائق، وما أن فُتِحَتْ الإشارة، حتى سأله بدافع الفضول: ما الموضوع؟!

- أبداً ... يبدو أن هذا أحدهم ...

- وقال السائق - دون أن يفهم المقصد -: ومن هم الذين هذا أحدهم؟! ....

- واحد ... يعتقد أنني مارق وزنديق وعلماني ... إلى آخر هذه العبارات الرنانة التي أجزم أنه هو نفسه لا يعلم معناها ...

- ولماذا يعتقد ذلك؟! ...

- (فابتسم بهدوء بعد أن أيقن أن هذا السائق لا يعرف مع من يتحدث): لا أعلم ... ولكنها أسباب خاصة ...

وتوقف فضول السائق عند هذا الحد، بعد أن أحس أن الراكب لا يريد الاستفاضة في الحديث، فاستجاب لرغبته وتوقف عن الحديث ...

وعندما وصلا إلى المنزل، أخرج مشعل محفظته، ودفع له مبلغ التوصيل، ونزل ليحمل حقيبته، وقبل أن يقفل الباب الخلفي، شاكراً

obeikandl.com

له على التوصيل حتى سأله السائق بعد أن تأمل في وجهه للحظات: لحظة لحظة ...

- وأقفل مشعل الباب الخلفي، وأطل برأسه من النافذة الأمامية: هلا ... الحساب ناقص؟! ..

- لا لا لكن شكلك ليس غريباً عليّ ...

- فردد مشعل بينه وبين نفسه ..."صباح الفل" ... ثم قال بابتسامة قرف بالكاد حولها إلى مجاملة: يخلق من الشبه أربعين.

- فنزل السائق على عجل وكأنه اكتشف الذرة، تاركاً باب سيارته الأمامي مفتوحاً: ليس إلى هذا الحد .... أنت الأستاذ مشعل؟!

- (فهز رأسه بعلامة الإيجاب): معك ..

- الآن عرفت ماذا يقصد ذاك الرجل ... (مشيراً إلى من كان واقفاً بجانبهما عند الإشارة) ..

فردد مشعل بينه وبين نفسه ... "يا عيني على العبقرية الفذة" ...

- (وتابع السائق): بصراحة ... سمعت كثيراً عن كتابك ... وقرأت عنه أكثر في المنتديات ... ودافعت عنه أكثر وأكثر في

المنتديات ... (وتابع بحماس) ... ادخل أي منتدى إنترنتي ستجد أن أكثر شخص يدافع عنك واحد اسمه "القلم الساحر" ... الذي هو أنا ...

- وقال بعد أن مرت في مخيلته أسماء وكتاب المنتديات، فتذكر "القلم الساحر"، الذي أشبع مشعل إعجاباً، ولكتابه رفعة (حد التقديس): شكراً ... (وأحس حينها بسعادة غامرة حين رأى أحد معجبيه الإنترنتيين أمامه، خاصة وأنه من أشد المنافحين عنه، وعن كتابه، ثم تابع قائلا)... بصراحة لا أدري ماذا أقول عنك وعن أمثالك؟! ... ولا أدري ماذا أقدم لك غير كلمة شكرا؟! ..

- لا شكر على واجب ... أنت وأمثالك من الكتاب النيريين تستحقون أن يُدافع عنكم ... وتستحقون أكثر من ذلك ... ولولا ظروف المعيشة لكنت أمام الشاشة أربعاً وعشرين ساعة أدافع عنك في كل موقع ... حتى بعض أصدقائي كنت وما زلت أتناقش معهم حول كتابك ...

- شاكر لك والله ...

- المشكلة أن أغلب، بل يمكن كل، من يذمك لم يقرأ الكتاب ... حتى عندما يُسألون هل قرأتم الكتاب؟ ... كانوا يردون ... (ثم غير نبرة صوته ساخراً منهم متحدثاً على طريقتهم) ... لا حاجة لنا بهذه التفاهات ... يكفي أن فلان من المشايخ يحذرنا منه ... (ثم

عدل نبرة صوته) ... وهكذا ... يتكلمون ويذمون ويطلقون الألقاب دون حتى أن يكلفوا أنفسهم بقراءته ...

- والله بصراحة ... أخجلت تواضعي ... ولا أدري ماذا أقدم لك تعبيراً عن امتناني وشكري لك

- (ثم خفت حماسة الشاب قليلاً، وبدأ يتكلم بأدب): والله إذا لا يوجد عليك إحراج ... أن تعطيني نسخة من الكتاب حتى أقرأه وأتعمق فيه ... ويكون دفاعي عنك مبنياً على أسس سليمة ...

فتجمد كل شيء في مشعل، وتصنمت ملامحه، وتبلد إحساسه، وتوقف شعر رأسه دون أن ينبس ببنت شفة ...

وبعد لحظة صمت ... تمنى مشعل فيها لو لم يؤلف، ولم يخرج للنور، ولم يذهب للمقابلة، بل ولو لم يولد حتى، قال السائق: أستاذ مشعل!! ...

- (وانتبه مشعل لنفسه): نعم ...

- لا أدري ... إذا كان لديك نسخة من الكتاب ... لأني بصراحة بحثت عنه في جميع المكتبات ولم أجده ... ولا أستطيع السفر خارج المملكة حتى أشتريه ... ولا أعرف أحداً من زملائي لديه نية للسفر إلى الخارج في الفترة الحالية ... فإذا كان لا يوجد أي إحراج عليك تهديني نسخة من الكتاب!!! ...

– (فهز رأسه وقد خنقه الأسى قائلاً): تأمر أمر ... لعلي أجد نسخة في البيت .. انتظرني قليلاً .

ودخل مشعل البيت، متثاقلاً بمشيته متجهاً إلى مكتبته المنزلية، وأخذ نسخة من ضمن النسخ المكدسة لكتابه، وعاد إلى السائق، وبعدما كتب عليه إهداء جميلاً موقعاً بتاريخ اليوم، دخل إلى منزله مستغرباً من هذه المناظر، مندهشاً من هكذا عقليات!!!

– هل فهمت؟! ... (قالها عبدالله صديق مشعل، بعدما شرح له أسباب ما حصل له في زيارته لبيروت، والتي ذكر له مشعل المواقف التي مرَّت عليه من المدَّاحين أو الذمَّامين) ...

– (وقال مشعل في وجوم): تقريباً ..

– (قال عبدالله مؤكداً على كلامه): لا تقريباً ولا هم يحزنون ... بل هذا هو ما تم ... فكّر بما قلته لك وستجد أنه لا تفسير لذلك إلا ما ذكرته لك ...

– (فنظر مشعل إلى ساعته، ووجدها قاربت الثانية عشرة ليلاً، فقال بعد أن قام متجهاً إلى الخارج، وكأنه لا يريد أن يسمع كلاماً أكثر وأسوأ مما سمع): عموماً ... الوقت أدركنا ... لكن يبدو لي أنك بالغت بعض الشيء ...

– (ثم تبعه عبدالله بعدما أحس أنه قد ضايقه بصراحته، وأطل عليه من نافذة سيارته قائلاً): آسف إذا كنت أغضبتك برأيي ... ولكنها الحقيقة التي أحببت أن أنبهك عليها ... وإن كنت متأكداً منها إلا أنني أتمنى أن أكون مخطئاً فيها ... (وبعد فترة صمت كان عبدالله يتوقع خلالها رداً من مشعل الذي استمر في صمته ووجومه، أكمل عبدالله حديثه) ... عموماً هذا ما لديَّ ... ولك حرية الاقتناع به من عدمه ... (وتابع مبتمساً بهدوء) ... اللهم بلغت ... اللهم فأشهد ...

وحرّك مشعل سيارته متجهاً إلى البيت، وهو في تخبط ذهني من كلام عبدالله الذي قابله بعد ثلاثة أيام من عودته من بيروت ...

وفي وسط الظلام الذي لا يظهر فيه إلا أضواء أعمدة الإنارة، وشعاع أنوار السيارات، ووهج اللوحات الإعلانية، وواجهات المحلات، بدأ التفكير الجدي من قبل مشعل في كلام عبدالله الذي ذكره بعدما سمع كلامه في موقفٍ حصل لهما أثناء سفرهما إلى الولايات المتحدة الأمريكية لدراسة اللغة الإنجليزية، وسكنهما سوياً عند عائلة كان رب هذه العائلة يعمل صانعاً للدمى في أحد مصانع ألعاب الأطفال، وفي الوقت نفسه كان عاشقاً للطيور، التي كانت موزعة في أماكن متعددة من البيت، ومن هذه الطيور كان لديه نوعان من الببغاوات، في صالة الجلوس واحد، وفي الحديقة نوع آخر يختلف

عن السابق، والمسمى بـ"بلو أند جولد ماكاو" وقد استغرب مشعل من هذا النوع تحديداً لطوله، وكبر حجمه، وكذلك لذكائه وقدرته العالية على التقليد؛ أما عبدالله فقد ارتاح أكثر للنوع المسمى بـ"الأمازون"، وهو المرتكز داخل قفصه في صالة الجلوس، وذلك لرقة جانبه، وشخصيته الرائعة، إلا أن ما يعيب هذا النوع من الببغاوات أنه لا ينسجم كثيراً مع الغرباء، فكثيراً ما حاول مشعل وعبدالله تلقين هذين الببغاوين كلمات عربية، أو كلمات إنجليزية أخرى، إلا أن هذين الببغاوين كانا ... "أذن من طين، وأذن من عجين" ... فلغير صاحبهما كان من الصعوبة أن يسمعا لأحد، حتى أنهما استغربا أشياء أخرى، فالببغاء "الأمازون كان يردد دائماً عندما يرى دمية معينة ... "دمية جميلة ... دمية جميلة"، بينما الببغاء "بلو أند جولد ماكاو"، كان يردد حين يرى الدمية نفسها ... "دمية قبيحة ... دمية قبيحة" ... فسأل مشعل رب العائلة الأمريكي، صانع الدمى، والذي يصل عمره إلى منتصف الستينيات تقريباً عن ذلك، فأجابه وهم جالسون في صالة الجلوس لتناول شيء من القهوة، وكان ذلك في حدود الساعة السابعة مساء: شيء طبيعي ما يحدث أمامك يا مشعل ...

- لماذا؟! ...

- لإنها ببغاوات ... فالببغاوات عادة ما يكون لديها توارد خواطر بين ما تراه ... وبين أول كلمة تردد أمامها حول هذا الشيء

... فعندما انتهيت من صناعة تلك الدمية وضعتها أمام ابنتي لتقول رأيها ... فقالت بانبهار دمية جميلة ... فسُعدت بذلك ... وأصبحت أردد بصوت مسموع وبين يدي هذه الدمية فرحاً بها ... دمية جميلة ... دمية جميلة ... وكنت ساعتها ناسياً وجود هذا الببغاء ولم أعره إهتمامي ... ووضعت تلك الدمية على طاولة جانبية بجانب قفص الببغاء وكنت مستمراً في ترديد دمية جميلة ... دمية جميلة ... إلى أن تفاجأت بهذا الببغاء يرددها معي وبالطريقة نفسها ... دمية جميلة ... دمية جميلة ... ومن تلك اللحظة وإلى هذا اليوم وربما إلى ما لا نهاية وهذا الببغاء يردد دمية جميلة ... دمية جميلة كلما رأى هذه الدمية إلى أن أردد أمامه جملة أخرى ... (وتابع مبتسماً) ... لذلك فضلت أن يبقى هذا الببغاء بجانبي حتى يرفع معنوياتي على الأقل ...

- (وقال عبدالله): وماذا عن الآخر؟! ...

- (فارتشف رب العائلة من فنجان القهوة أمامه وقال بهدوء): لا شيء يذكر ... سوى أنني سألت زوجتي السؤال نفسه ... وكنت لحظتها في الحديقة ... ولكنها أعطتني إجابة مختلفة وقالت دمية قبيحة ... (وتابع مبتسماً) ... ربما من باب الغيرة مني ... فهي تغار على أتفه الأسباب خاصة بعدما مدحتني ابنتي ... (فزادت ضحكته عالياً) ...

– وماذا بعد ذلك؟!

– سألتها دمية قبيحة؟! ... لماذا؟! ... فقالت بعجرفة قاصدة إيغاظتي ... لأنها دمية قبيحة فقط ... ولم أعر كلامها اهتماماً ... ولكنها أمسكت الدمية وأصبحت تردد لنرفزتي ... (ثم أطل بعينيه من خلف نظارته الطبية) ... مازحة بالطبع ... دمية قبيحة ... دمية قبيحة ... وكانت تقول ذلك بصوت مسموع لعل الببغاء يردد ما تقول .. خاصة وأنها أصيبت بالغيظ من ترديد الببغاء الآخر دمية جميلة ... دمية جميلة ... ولم يخيب ذاك الببغاء الأهبل ... (قاصداً الـ "بلو آند جولد ماكاو") ظنها ... وبدأ يردد دمية قبيحة ... دمية قبيحة ... وهكذا ... وكنت إذا أردت أن أثبت لها مهارة يدي وجودة صناعتي آخذ الدمية معي وأضعها أمام ببغاء الأماوزن المرتكز أمامك في الصالة ... (وآشار إليه بإيماءة من رأسه) ... فيردد ... دمية جميلة ... دمية جميلة ... (ثم تابع ضاحكاً) ... وكانت إذا سئمت هي من ذلك ... أخذت الدمية نفسها ووضعتها أمام ذاك الببغاء الأهبل ليردد على مسامعي تلك الكلمة المملة ... دمية قبيحة ... دمية قبيحة ... وهكذا أصبحت حياتنا سوياً عناداً في عناد ... (وتابع بعدما خفت ضحكته مكتفياً بابتسامة خفيفة) ... ولكنه كان عناداً لذيذاً على أي حال ...

– (فقال مشعل مبتسماً مما سمع): ألم تحاول تغيير وجهة نظر ذاك الأهبل؟! ..

– مستحيل ... فالببغاء لديه توارد خواطر عجيب بينه وبين وليفه ... فالأمازون لي وأنا الذي اشتريته وربيته وراعيته ... وبالتالي سوف يردد ما أقوله له بشيء من التدريب ... أما ذاك المتخلف ... (قالها ضاحكاً) ... فقد اشتريته وأهديته لزوجتي التي رعته وحافظت عليه ... وبشيء من التدريب والعشرة أصبح يردد ما تقول زوجتي لا ما أقول أنا!! ...

– وهل هذا يعني أنك لا تستطيع تغيير وجهة نظره أبداً؟! ...

– (فقطب حاجبيه مستغرباً): عن أي وجهة نظر تتحدث؟! ... إنه ترديد فقط لما يسمع لا أكثر ولا أقل ... سأعطيك مثالاً ... لو وضعت الببغاء في صالة الطعام ... وكل يوم عند الساعة السابعة مساءً مثلاً وبعد أن تضع الطعام تنادي أبناءك بصوت مسموع ... العشاء جاهز ... وفي كل يوم تعيد الحركة نفسها ... والكلمة نفسها ... مع الوقت ستجد الببغاء في الوقت نفسه ومع الحدث نفسه سينادي بأعلى صوته ... العشاء جاهز ... مع ملاحظة أنه لو في الوقت نفسه قمت بالحركة نفسها وقلت بصوت مسموع ... هيا اذهبوا .. فستجد الببغاء ومع الوقت يردد هيا اذهبوا ... إنه فقط يردد ما يقوله له وليفه حسب ربطه بين الحدث والتوقيت لا أكثر ولا أقل ...

– (فقال عبدالله مؤكداً كلام صديقه مشعل): أي أنه بالإمكان تغييره وليس مستحيلاً كما تفضلت قبل قليل ...

– نعم ... ولكن مع بعض الوقت ... ونوع خاص من الرعاية ... ولنعد إلى مثال الدمى ... لو أتيت إلى ببغاء الأمازون مثلاً ووضعت أمامه دمية وبدأت أردد أمامه دمية قبيحة ... دمية قبيحة ... ماذا تظنون سيقول؟! ... مع أني في خاطري أريد منه أن يقول دمية جميلة ... هل سيفهم ما أريد منه أن يقول؟! ... أم أنه سيردد فقط ما قلته له؟! ...

– فقال مشعل – متردداً –: أعتقد سيردد فقط ...

– بالضبط هذا ما سيحدث ..

– حسناً ... ماذا لو أتيت أنا وحاولت أن أغير من وجهة نظره ... (فلاحظ امتعاض رب العائلة من كلمة "وجهة نظره"، فتراجع باسماً) ... أقصد من ترديده لتلك الكلمة ... أو أي كلمة أخرى ..

– سيكون صعباً عليك ... ولكنه ليس مستحيلاً ... فالببغاء عادة ما يستمع لوليفه فقط ... ولا يستمع لغيره ... ولكن عليك للنجاح في تغييره أن تبدأ من جديد في الرعاية والمهادنة والتدريب والموالفة ... فالببغاء مردد جيد لما يقوله مربيه أو وليفه ...

– وماذا عنك لو أردت أن تغير ما يقول ...

– سهل جداً ...

– كيف؟! ... ألم تقل أنت قبل قليل أن ذلك يعتمد على توارد

الخواطر بينه وبين ما يرى والحدث الذي لازم الشيء الذي يراه؟! ...

– نعم ... ولكنه في النهاية ببغاء ... يردد فقط ... فالعامل الرئيس هو وليفه ومربيه ... وفي هذه الحالة المربي هو أنا كصانع دمى ... فمهما حاولت تغييره في ترديد ذاك الكلام عن تلك الدمية لن يتغير ... لأنه باختصار يتبع مربيه وهو أنا ... صانع الدمى ... ففي النهاية تبقى الببغاوات ببغاوات وتتغير الدمى ولا يتغير صانعوها!! ...

واستلقى مشعل على السرير بمنزله بالرياض بعدما عاد هذا الحوار أعلاه في مخيلته كشريط سينمائي، والذي ذكره به عبدالله قبل أن ينهي حديثه معه بكلمة .... "هل فهمت؟!" ...

وبعد أن وضع مشعل يديه خلف رأسه مستلقياً على السرير وحيداً يفكر ... "إلى ماذا يريد أن يصل عبدالله؟! ... هل كان يعني ما يقول؟! ... وهل فهمي لما يقوله هو بالضبط ما كان يريد أن يصل إليه؟! .. لقد قلت له تقريباً وأنا في خاطري كأني بدأت أقتنع بكلامه!!" ... ثم قام من السرير واتجه إلى دورة المياه، فاتحاً الصنبور على آخره، ووضع رأسه تحت الماء، وكأنه يريد أن يفيق من حلم ... أو كابوس ... أو ربما حقيقة نبهه إليها عبدالله ... وبعد أن اكتفى من الماء الذي كاد ينفجر على رأسه، ويفجر معه كل أحلامه بالنجاح، والنجومية، أخرج رأسه من تحت الصنبور، وبدأ يتأمل في

وجهه المنساب عليه الماء، وكأنه شلالات تسقط من أعلى بقعة في الأرض إلى أسفل مكان تحتها، وبدا شعره من أثر الماء الذي كاد أن يخفي ملامح شعره، وكأنه قد هرب للتو من أمطار وبروق ورعد، وبدأ جفناه بالذوبان تحت هواجس من التفكير، وعيناه قد أضناهما السهر بعواصف من القلق، وأخذ المنشفة، ومسح بها رأسه ووجهه، وخلع فانيلته المبتلة، التي نسيها وهو واضع رأسه تحت الماء، وأبدلها بفانيلة أخرى، وعاد واستلقى ثانية على السرير، وتنهد بينه وبين نفسه ... "آآآه ... ماذا فعلت بي يا عبدالله؟! ... ليتك كنت صريحاً أكثر حتى أفهم!!" ... ثم عاد وانتبه لنفسه ... "وهل أكثر من هذه صراحة؟! ... أعتقد أن ما يريد أن يقوله عبدالله واضح وضوح الشمس ... أعتقد أن ما حصل لي من أثر كلامه ليس لأني لم أفهمه ... ولكن ربما لأني لا أريد أن أقبل الحقيقة حتى وإن كانت مرة كالعلقم ... فأنا" ... ثم تردد في قول الكلمة، وتنهد كمن يريد ألا يواجه نفسه بالحقيقة قائلاً ... "لستُ إلا كما قال عبدالله"!!! ....

❊ ❊ ❊

مضى ثلاثة أشهر على اللقاء الصحفي ...

مشعل ... قابع في منزله الآن بلا عمل، بعد أن أقاله رئيس التحرير مع خطاب شكر على خدماته الماضية، بعد خلاف بينهما

حول مقالة كان مشعل يريد أن ينشرها، إلا أنه اصطدم برفض رئيس التحرير لها، الذي اتصل عليه هاتفياً بعدما قرأ المقالة قائلاً: ما هذه المقالة يا مشعل؟!

- وما بها؟!

- هل تعتقد أن مقالة مثل هذه تستحق النشر؟! ..

- ولماذا لا تنشر؟! ..

- أسباب كثيرة ... وأنت أعرف الناس بها ...

- مثل ماذا؟! ...

- لا وقت لدي للشرح ... ولكن مقالة مثل هذه لن تنشر ... (وقال وهو لا يزال محتفظاً بهدوئه) ... أرجو أن ترسل مقالة أخرى حتى ننشرها ... فلا وقت لدينا لأن ندخل في تفاهات من هذا النوع ...

- تفاهات؟! ... أرجوك يا أبو ناصر ... ما كتبته ليس تفاهات ... وإنما آراء شخصية أتحمل تبعاتها ... وأتمنى منك فضلاً لا أمراً أن تسمح بنشرها ...

- (فقال بنبرة مشوبة بالسخرية): آراء شخصية؟! ... يبدو أنك عشت الدور تماماً وصدقت أنك مفكر وكاتب لا يشق له غبار ...

obeikandl.com

وبهت مشعل من هذه النبرة الغريبة في حديث رئيس التحرير، دون أن يجد الرد المناسب، فقد توقفت الكلمات عند طرف شفتيه، وتجمدت الأفكار في داخل رأسه، دون أن ينبس ببنت شفة، (فأكمل رئيس التحرير حديثه): في الفترة الأخيرة يا مشعل لاحظت عليك بعض التغيرات ... وكنت أفسره أنه نوع من النشوة لا أكثر ... نشوة الشهرة والإعلام ... ولكن يبدو أنك بدأت تخرج عن المسار المحدد لك ... وبدأت تتجاوز الخطوط الحمراء ...

- أي خطوط؟! ... وهل عندما أعبر عن آرائي أكون قد تجاوزت الخطوط الحمراء؟! ...

- (فتنهد رئيس التحرير في ضيق): عموماً ... لا وقت لدي للشرح والحديث في جدل عقيم لا طائل منه ... (وتابع بنبرة جادة) .... هي كلمة واحدة ... هذا المقال لن ينشر ... ابحث لك عن مقال لنشره غداً أو سوف نعتذر للقراء عن حجب عمودك لظروفك الخاصة ... إلى اللقاء

لم يتفاجأ مشعل كثيراً بهذا الأسلوب، فما حذره منه عبدالله قد بان جلياً أمام عينيه، ولكنه قرر أن يخوض التجربة بنفسه، ويتأكد من نتائجها، فالمقال لم يكن به أي شيء يمس أي شيء آخر... "ولكنه ضد شيء واحد فقط ... هو فكر رئيس التحرير ... ومبادئه" ... قالها مشعل بينه وبين نفسه، وتتابعت أفكاره كظلمات في بحر

لجي بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ... "يبدو أن عبدالله كان على حق ... فعند أول اصطدام لي به ... بانت الحقيقة ... وانكشف المستور ... فالقضية ليست قضية فكر نير ... وأدب عالٍ ... وثقافة متطورة ... فكل ما في الموضوع هو أنه يريد مني أن أكتب له ما يوافق أهواءه – فقط – بصرف النظر عن قناعاتي" ...

ولذلك أصر مشعل على رأيه في نشر المقال، وتشبث رئيس التحرير بعناده في عدم نشر المقال، إلى أن سئم رئيس التحرير هذا الموال اليومي، فأمر بصرف حقوقه، مع خطاب شكر وفوقها حفلة مبسطة لمنسوبي الصحيفة فقط دون أي حضور إعلامي مكثف أو غير مكثف، حتى لا يبين أن هناك أي شيء بينه وبين مشعل ... "حتى لا يأخذ أكبر من حجمه الذي بدأ يتجاوزه" ... حسب تعبير رئيس التحرير لأحد المقربين منه!! ...

وهاهو ذا مشعل بعد مضي ثلاثة أشهر بلا عمل، خاصة وأنه في الأساس لا يملك مؤهلاً مناسباً بسبب سنوات عمره التي قضاها في أفغانستان والشيشان، وبعد أن عاد نشر تلك الرواية الأولى بالنسبة له، بعد أن قدم لها رئيس التحرير تقديماً لا يوازيه جمالاً، ولا يفوقه مستوى، إلا سمعة رئيس التحرير، وجريدة رئيس التحرير، و "البروبجندا" التي عملتها جريدة رئيس التحرير، فصنعت ذاك الكتاب ... أكثر مما صنع الكتاب نفسه!!! ...

وأثناء ما كان جالساً في صالة منزله يقلب في القنوات الفضائية، صادف أن التقت عيناه بذاك المذيع الشهير، بتلك القناة اللبنانية المعروفة، والذي أجرى معه حواراً قبل ثلاثة أشهر، ولكن هذه المرة ... مع فتاة في منتصف العشرينيات من العمر ... خريجة حديثاً من الجامعة ... نشرت كتاباً قبل فترة أحدث ضجة كبيرة قاربت إن لم تتجاوز تلك الضجة التي أحدثها كتابه ...

واعتدل في جلسته، وبدأ يركز أكثر في المقابلة ... "سبحان الله!!!" ... تمتمها بينه وبين نفسه ... "الكلام نفسه الذي كنت أردده ... الأفكار نفسها التي كنت أطرقها" ... وبدأ يتسمع للاتصالات ... "بل حتى نفس الاتصالات ... «شلة» المدَّاحين ... وفرقة الذَّمامين" ... من قائل "يا مبدعة ... يا صاحبة الفكر النيّر ... يا من كشفتي واقعنا وعريتيه" ... وآخر يشجب ما كتبت ... ويستنكر ما ذكرت ...

وانتهى اللقاء ...

واستلقى مشعل على الكرسي يفكر فيما حدث ويحدث، وقبل أن تتسلسل أفكاره إلى نواحٍ بعيدة، وتجره خواطره إلى طرقات لا نهاية لها، انتفض فجأة واتجه إلى جهاز الحاسب الآلي، ودخل الإنترنت متوجهاً إلى أكثر المواقع إثارة في الإنترنت، وبدأ في تفحص الموضوعات ... وجد أن أغلبها يتحدث عن هذه الكاتبة، وكتابها ... أصلها، وفصلها ... وميولها ... وفكرها ... وكل

شيء يتعلق بها ... كما كانوا يتحدثون عنه بالأمس ... ودخل أحد الموضوعات ... كاتب ... يذم الكاتبة ... ويدعو عليها بالثبور والخسران، وآخر يدعو لها بالهداية، وكلاهما ... "ليس له حاجة لقراءة هذه التفاهات!!" ... آخرون ينافحون عنها، ويدافعون عن أسلوبها ... أما هؤلاء فيختلفون ... فهناك من "قرأ ست صفحات وسيكملها غداً" ... وهناك من "تصفحها!! عند أحد أصدقائه ووُعِدَ بأن يعطى إياها في حالة الانتهاء منها!!" ... وهناك أيضاً من ... "اشترته من بيروت أمس ... وسوف تقرؤها بعد قليل!!" ... وعلى الرغم من ذلك فالجميع يتناقش!! ... والكل يتجادل!! ... والكلمات تتبعثر على الشاشة كأنها حمر مستنفرة ... فرّت من قسورة ...

وقبل أن يغلق الجهاز، لفت نظره أحد الأسماء الإنترنتية ... إنه .... "القلم الساحر!!"، فابتسم مشعل متعجباً ... "أما هذا فبحد ذاته حكاية ... إنه أيضاً يدافع ... ولكن عن ماذا يدافع؟!! ... أم ربما ينتظر صاحبة العصمة!!" كما رددها مشعل بينه وبين نفسه ... مكملاً تمتمته ... "أن تأتي من بيروت ... فيقوم بتوصيلها إلى البيت بسيارته ... فيأخذ منها نسخة من الكتاب ... لأنه ... بصراحة بحث عنه في جميع المكتبات ولم يجده ... ولا يستطيع السفر خارج المملكة حتى يشتريه ... ولا يعرف أحداً من زملائه

لديه نية السفر إلى الخارج في الفترة الحالية!!! ... وذلك حتى يتمعن فيه!!! ... ويكون دفاعه مبني على أسس سليمة!!!!!!!" ....

ثم ألقى بظهره إلى الكرسي مدلياً رأسه إلى الخلف يفكر باستغراب بعد أن أقفل الجهاز، ودار بعينيه أنحاء الغرفة، وعلى شفتيه ابتسامة تعجب مما يرى، إلى أن وقعت عيناه على صورة مرتكزة على الحائط ... جمعته بعبدالله وأب العائلة في أمريكا، وكان مشعل في الصورة مبتسماً جالساً في الطرف الأيمن لها، وعبدالله مبتسماً جالساً في الطرف الأيسر، وبينهما أب العائلة جالساً ومبتسماً أيضاً حاملاً قفصين أحدهما يسكن به الـ "بلو أند جولد مكاو"، والآخر يسرح فيه "الأمازون"، أما حضنه ... فقد كان فارغاً إلا ...... من الدمية!!!

* * *